الدعوة التامة
والتذكرة العامة

تأليف
الشيخ الكبير والقطب العارف
بالله الحبيب السيد عبد الله بن
علوى الحداد أثابه الله ونفع بعلومه آمين
ويليه
الرسالة المسماة بالمذاكرة للمؤلف أيضا

بالمعنى على فسانترين

الدعوة التامة والتذكرة العامة

تأليف

الشيخ الكبير والقطب

العارف بالله الحبيب السيد

عبد الله بن علوى الحداد

أثابه الله ونفع بعلومه

آمين

ويليه

الرسالة المسماة بالمذاكرة للمؤلف أيضا

بالمعنى على فسانترين

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم
الحمد لله ذي الجلال والاكرام . الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العلام . الذي من علينا بأن
هدانا إلى الايمان والاسلام . وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس والأنام ، وبين لنا في كتابه العزيز المبين ،
على لسان رسوله الصادق الأمين ، شرائع الدين من الحدود والأحكام . ومناهج الحلال والحرام . وميز لنا
بين الحق والباطل . والهدى والضلالة والطاعات والآثام . فوضحت بذلك المحجة للسالكين المهتدين .
وقامت به الحجة على التاركين المعتدين . وله سبحانه وتعالى النعمة السابغة . والحجة البالغة على جميع
العالمين من كل خاص وعام . خلق الخلق لما يشاء ويستعملهم فيما يشاء رحمة وفضلا . وحكمة وعدلا .
ونوعهم في ذلك وفي غيره من أحوالهم وأفعالهم . وسيرهم وصورهم على أنواع . وقسمهم فيه على أقسام .
ليدل بذلك على عظيم قدرته الباهرة . وعلمه المحيط ومشيئته القاهرة وشئونه الباطنة والظاهرة . وليس في
شيء من ذلك بجائر على عبده ولا بظلام . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون . خلق الجنة وخلق لها أهلا فهم
بعمل أهل الجنة يعملون . وخلق النار وخلق لها أهلا فهم بعمل أهل النار يعملون . وهم في جميع ذلك
لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . وليسوا بذلك
في حال تقصيرهم عن القيام بحقه والامتثال لأمره والوفاء بعهده ولا في ارتكاب نهيه . والعمل بمعصيته
بمعذورين مهما كانوا مختارين وغير مستكرهين ولا مقهورين ولا مجبورين . وقد هلك المتنطعون والمتعمقون
والمترخصون المحتجون على ربهم الذين قال فيهم عز من قائل - ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون -
فله سبحانه الحول والطول والفضل والاحسان . والمن والانعام ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد
عبده ورسوله . الذي أرسله رحمة للعالمين . وختم به النبيين . وجعله سيد المرسلين . وأكرم السابقين

واللاحقين وأول الشافعين المشفعين ، وعلى أهل بيته الطاهرين الكرام ، وعلى أصحابه الأئمة الأعلام ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم البعث والقيام ، والحشر الى الله والحساب والوزن والعبور على الجسر الذى تثبت عليه أقدام وتزل عنه أقدام . ـ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ـ والسخط والانتقام ـ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام ـ اللهم ان بك العياذ واللياذ والاستعانة والاعتصام ، نعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ومن شر كل شيطان مارد وجبار معاند وباغ وحاسد ، ومن شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وأنت الرحيم الغفور . تجير ولا يجار عليك ولا منجا منك الا اليك . اللهم اهدنا بهداك واجعلنا ممن يسارع فى رضاك . ولا تولنا وليا سواك ولا تجعلنا ممن خالف أمرك وعصاك . وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ـ وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ـ وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . نعم المولى ونعم النصير ، لا اله الا هو الحى القيوم الذى تفرد بالقدم وتوحد بالبقاء والدوام .

[أما بعد] فهذا مؤلف مبارك ان شاء الله ومجموع جمعناه بعون الله ذكرنا فيه نبذا وأطرافا من النصائح والوصايا والآداب العلمية والعملية التى يتعين أو يتأكد الأخذ بها والاتصاف بحقائقها ومعانيها ، وقصدنا بذلك النصيحة والوصية والتأديب لأنفسنا ولإخواننا فى الدين من المؤمنين والمسلمين ، وفقنا الله واياهم لمرضاته وجعلنا واياهم ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ويشكره ويذكره ذكرا كثيرا ويسبحه بكرة وأصيلا والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، والمرء حيث قصده لا حيث جسمه ـ وكل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ـ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ان الله لا ينظر الى صوركم وأجسادكم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » الحديث . وقال عليه الصلاة والسلام « من غزى وهو لا ينوى الا عقالا فله ما نوى » وقال عليه الصلاة والسلام « أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » وقال عليه الصلاة والسلام « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » اللهم اجعل ما علمتنا حجة لنا ومحجة الى رضاك وجنتك ولا تجعله حجة علينا ولا سبيلا الى سخطك ولا الى النار التى هى دار عقوبتك . اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من أحوال أهل النار . وقد سمينا هذا التأليف :

كتاب الدعوة التامة والتذكرة العامة

ورتبناه على مقدمة ، وذكر ثمانية أصناف ، وخاتمة . فأما المقدمة فنذكر فيها شرح الدعوة الى الله والى دينه وسبيله . وأما الأصناف فالصنف الأول العلماء ، والصنف الثانى أهل الزهد والعبادة ، والصنف الثالث أهل الملك والسلطنة ونحوهم ، والصنف الرابع أهل التجارات والصناعات ونحوهم ، والصنف الخامس أهل الفقر والضعف والمسكنة ، والصنف السادس الأتباع من الأولاد والنساء والمماليك ، والصنف السابع أهل الطاعة وأهل المعصية من العامة ، والصنف الثامن من لم يستجب لدعوة الله ورسوله ولم يؤمن بالله واليوم الآخر . وأما الخاتمة فتكاد تنعطف على نصيحة هؤلاء الأصناف الثمانية على وجه وجيز وعلى نصائح ومواعظ ورقائق وبتمامها يتم الكتاب والله هو الهادى الى الحق والصواب ، ومنه نسأل العون والتأييد ونستمد التوفيق والتسديد ، هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب . وهذا أوان الشروع فى المقصود وبالله الاستعانة وعليه البلاغ لا اله غيره ولا رب سواه ولا معبود ولا مقصود الا اياه وله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان

أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

المقدمة من الكتاب

ونذكر فيها الدعوة الى الله تعالى والى دينه وسبيله والأمر بذلك وفضله والحث عليه وفيها التنبيه على مسائل مهمة وفوائد جمة . قال الله العلي العظيم القوي المتين في كتابه العزيز المبين لرسوله الصادق الأمين - ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين - وقال تعالى - قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين - وقال تعالى - ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين - وقال تعالى - ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

فالدعاء الى الله والى سبيله ودينه وطاعته وصف الأنبياء والمرسلين ودأبهم وبه وله بعثهم الله وأمرهم وأوصاهم وعليه حثهم وحرضهم ، وعلى ذلك اتبعهم واقتدى بهم ورثتهم من العلماء العاملين والأولياء والصالحين من عباد الله المؤمنين فلم يزالوا على كل حال وفي كل زمان وحين يدعون الناس الى سبيل الله وطاعته بأقوالهم وأفعالهم على غاية من التشمير والجد في ذلك ابتغاء لمرضات الله وشفقة على عباد الله ورغبة في ثواب الله واقتداء برسول الله ﷺ وقد قال عليه الصلاة والسلام « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم » وقد قال عليه الصلاة والسلام « الدال على الخير كفاعله » وما ورد من الآيات والأخبار والآثار في الأمر بالدعاء الى الله والى سبيله وفي فضل ذلك كثيرة شهيرة وكل ما ورد في فضل نشر العلم وتعلمه وفي فضل الوعظ والتذكير بل وفي فضل الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل ومندرج في فضل الدعاء الى الله تعالى والى سبيله فان جميع ذلك من أنواعه وأقسامه ومن قصر عن الدعاء الى الله والى دينه من المتأهلين له مع التمكن منه فانه داخل تحت عموم الوعيد الوارد في حق من كتم ما أنزل الله من البينات والهدى - وفي ذلك وعيد شديد وعذاب وويل وذم من الله بليغ . قال الله تعالى - ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون - . وقال الله تعالى - ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار الى قوله تعالى - فما أصبرهم على النار - وقد أخذ الله المواثيق والعهود على الذين آتاهم كتابه وعلمه وحكمته في أن يدعوا عباده الى ذلك وليبينوه لهم كما قال تعالى - وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون - وقال رسول الله ﷺ « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » والسؤال بلسان المقال ظاهر جلي ، ولا يبعد أن يكون السؤال بلسان الحال مثله أو قريبا منه ، وقد قيل لسان الحال أفصح من لسان المقال ، فاذا رأى ونظر العالم بدين الله المذكر بأيام الله الداعي الى سبيل الله الى الجاهلين بالعلم الغافلين عن الآخرة المقبلين على الدنيا لم يسعه الا أن يبين لهم ما يجب عليهم من حق الله ويلزمهم من طاعته والقيام بأمره واجتناب معصيته وركوب نهيه فأما العلماء المقصرون الذين قد غلب عليهم التفريط والتخليط فليس يهتهم ذلك وربما لم يخطر لهم على بال لأنهم قد شاركوا الجهال في الاضاعة والاهمال وسيء الأعمال والأقوال فليس يمتازون عليهم الا بصورة العلم ورسومه التي على ألسنتهم وظواهرهم فليسوا أولئك من أئمة الهدى ولا من دعاة الخير ولا أدلة الطريق الى الله الملك العظيم بل قد يكون من يكون هو السبب في جراءة العامة وتجاسرهم واسترسالهم فيما لا خير فيه من الأقوال والأفعال التي تسخط الله ورسوله وذلك أن العامة اذا رأوا المنسوبين الى العلم والدين

يتهاونون ويتساهلون إلى اقامة أمر الله وفرائضه ولا يسارعون في طاعته ربما حملهم ذلك على الاهمال والاضاعة لامور الدين بل ربما جراهم ذلك على الوقوع في المهلكات، والجرائم الموبقات، فصار العلماء الساكتون بهذه المثابة من دعاة الشر وأئمة الضلالة من حيث يعلمون أو من حيث لا يعلمون، فنعوذ بالله من الانعكاس والانتكاس ونسأله العافية من كل محذور وبأس لنا ولأحبابنا وللمسلمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين، ثم انه ليس يسع أهل الحق والدين من العلماء الراسخين الناصحين لله ورسوله وللمسلمين بعد ماقد رأوا وشاهدوا بالعيان من اعراض العامة عن العلم والهدى، وعن إقامة الأمور الالهية والفرائض الدينية وركوب المحرمات الشرعية والرضا بالجهل بدلاً عن العلم والضلالة عوضاً عن الهدى والباطل خلفاً عن الحق مع الاكباب على الشهوات والسعي في نيل الحظوظ الفانيات وإيثار الدنيا على الآخرة والرضى بما يذهب ويفنى عما يدوم ويبقى أن يسكتوا عن أمرهم ونصيحتهم واقامة أمر الله فيهم ودعوتهم الى الهدى والخير ونهيهم عن الشر والمنكر، وأن يبذلوا في ذلك وسعهم واستطاعتهم ويستفرغوا في ذلك مجهدهم وطاقتهم فان ذلك واجب عليهم: إما على الأعيان، وإما على الكفاية، ليس لهم في ذلك عذر ولا في تركه سعة، وقد علمهم الله علمه واستحفظهم دينه وأورثهم كتابه وسنة رسوله، وقد قال عليه الصلاة والسلام «العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وانما ورثوا العلم» الحديث، وفي خبر آخر «علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل» وكان يبعث في بني اسرائيل النبي بعد النبي مجددين لشريعة موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وداعين لهم الى اقامتها ومحرضين على العمل بها ومخوفين لهم من اضاعة أمر الله وركوب نهيه، وكذلك يوحي من الله بوحيه اليهم كما يعرف ذلك من نظر في أخبارهم وقصصهم الى أن بعث الله عيسى ابن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بشريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام فكفر به بنو اسرائيل وكذبوه ونهوا أمه عليها السلام ثم وقعت الفترة بعد عيسى عليه السلام الى أن بعث الله عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم بالقرآن والشريعة الجامعة الناسخة لما تقدمها من الشرائع فكفرت به اليهود والنصارى وكذبوه الا من شاء الله منهم ولما جعل الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين والمرسلين فقال عز من قائل – ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شئ عليما – ختم به النبوة والرسالة وجعله كمالها وتمامها كما قد جعل به ابتداءها وافتتاحها جعل به انتهاءها وختامها فليس بعده نبي ولا رسول، جعل بفضله وجيل طوله وامتنانه من علماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه وحملة شريعته، والاهم في دينه من يشبه أنبياء بني اسرائيل من بعض الوجوه أو من أكثرها، وان كانت النبوة لاسبيل اليها ولا مطمع فيها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم محال والسبيل اليها مسدود وأيضاً فالاكتساب والاجتهاد لايوصل اليها ولا ينال به ولا في الوقت الممكن وقوعها فيه ذلك من قبل بعث محمد صلوات الله عليه وقد ختم النبوة والرسالة به، حيث كان الأمر على حسب ماقد علمت وسمعت جعل الله في هذه الأمة المحمدية الدعاة الى الهدى والمجددين لما اندرس من أعلام الدين وانطمس من معالم اليقين، ووقع التقصير فيه والغفلة عنه من اقامة الأوامر الالهية والنواهي الشرعية والى ذلك أشير بما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «ان الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة»، قال العلماء رحمة الله عليهم: فكان على المائة الاولى الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز الأموي القرشي رحمه الله، وعلى رأس المائة الثانية الامام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي رحمه الله، وعلى رأس المائة الثالثة الامام ابن شريح الشافعي والشيخ أبو الحسن الاشعري، وعلى رأس المائة الرابعة القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، أو الشيخ أبو حامد الاسفرايني الشافعي، وعلى رأس المائة الخامسة الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالي ووقع الخلاف في المجدد على

رأس المائة السادسة ، والسابعة ، والثامنة ، والتاسعة ، والعاشرة التى بتمامها يتم الألف من حين هجرته
صلى الله عليه وسلم ، وبها وقع ابتداء التاريخ فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب باشارة أمير المؤمنين
على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وكذا وقع اختلاف فى المجدد على رأس المائة الثالثة والمائة الرابعة كما
أشرنا الى بعض ذلك ، وذكر الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى كلام له على معنى هذا الخبر الوارد فيمن
يجدد لهذه الامة دينها على رأس كل مائة سنة انه يحتمل أن يكون المجددون على رأس كل مائة سنة جماعة
من العلماء الائمة يحصل بمجموعهم التجديد للدين ، وهذا الذى ذكره يحتمل من حيث اللفظ ، والمعنى
وحيث لم يذكر السلف الصالح فيمن قد عينوه وعرفوه لتجديد القرون الاول سواه واحدا على احتمال فيه
أو مع اختلاف فصار ما ذكره الحافظ السيوطى مما يتوقف فيه ، وقد طال العهد بالوقوف على ما ذكره ، والذى
يظهر ويقع فى الخاطر أن هذا محاصله ، والله هو العليم الخبير ، ويكون هذا التجديد من خواص هذه الامة
المحمدية لكون نبيها لا نبى بعده ولا رسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين ، وقد بلغنا
انه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحى بموته شكت الارض الى ربها أنه لا يمشى عليها
بعده نبى فجعل الله فى هذه الامة الاوتاد والابدال وأمثالهم من أولياء الله وأهل معرفته الذين هم ورثة الانبياء
وخلفاؤهم حتى انه قد ورد أن منهم من قلبه على مثل قلب ابراهيم الخليل عليه السلام وغيره من أنبياء الله
وملائكته عليهم السلام على وفق ما ورد فى الاخبار والآثار الواردة فى هذا الباب ، وفى الحديث «لا تزال طائفة
من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» وفيه «ليجدن ابن مريم
قوما من أمتى هم مثل حواريه» الخبر ، وفى كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه : اللهم لا تخلو الارض من
قائم لك بحجة إما ظاهر مشهور أو خامل مقهور الى آخر ما روى عنه ، فدل ما ذكرناه ومالم نذكره مما فى
معناه على أنه لا يزال فى هذه الامة من يدعو الى الله والى سبيله واقامة دينه وحفظ أمره فى كل زمان
ومكان ، وان فسد الزمان وغلب الباطل وتظاهر أهل البغى والعدوان ، فان الدين مؤيد بتأييد الله وظاهر
باظهار الله كما قال عز من قائل – هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون – ثم انه لا عذر للجاهل فى ترك طلب ما فرض الله عليه من العلم كما قال صلوات الله عليه طلب
العلم فريضة على كل مسلم ولا عذر لعالم فى ترك تعليم ما علمه الله من العلم المفروض تعلمه اما على العين ، واما
على الكفاية ، والعلم الذى فى ذكره ونشره النفع للخاص والعام هو العلم الذى يدعو من الدنيا الى الآخرة ،
ومن المعصية الى الطاعة ، ومن الغفلة الى اليقظة ، ويكون ذكر ذلك وايراده مقرونا بالوعظ والتذكير
والتخويف والتحذير وبيان الوعد والوعيد ، وما أعد الله من أنواع المثوبات لأهل الطاعات والاحسان ،
ومن أنواع العقوبات لأهل الاساءة والعصيان على نحو ما شرحه الله وبينه فى آيات القرآن ، وعلى لسان
رسوله المبعوث بالهدى والبيان فبمثل ذلك ترق القلوب وتخشع وتنقاد النفوس وتخضع قال الله تعالى – فلولا
نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون – ، وفى
حديث حنظلة رضى الله عنه حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « نكون عندك فتذكرنا بالجنة
والنار حتى كأنا رأى عين » ما ينبه على ذلك ، فترى كتاب الله وسنة رسوله مشحونين بذكر الترغيب والترهيب
والتبشير والتحذير فى خلال الآيات والأحاديث التى فيها شرح الاحكام وبيانها ، وكانت مجالس العلماء
العاملين والائمة المهتدين معمورة بذلك ، وكان منهم جماعة يقعدون على الكراسى ويجتمع عليهم الجم
الغفير من المسلمين فيعظونهم ويذكرونهم بأيام الله وبآلائه ويحثونهم على اقامة أوامره واجتناب نواهيه ،
وكان الناس ينتفعون بذلك وتظهر عليهم الآثار المحمودة من الخوف والبكاء والمسارعة الى التوبة والرجوع
الى الله وذلك معروف ومشهور من سيرهم سلفا وخلفا مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة فى زمنه وأبى حمزة

البغدادي ويحيى بن معاذ الرازي من المتقدمين ومثل الامام الغزالي والشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني والشيخ السهروردي صاحب العوارف من المتأخرين ، وأمثال هؤلاء من أئمة الدين ودعاة الخير وأدلاء الطريق الى أن ضعف هذا الامر ، وقلّت الدعوة الى الله فغلبت الغفلة على العامة واستولى عليهم الاعراض عن الآخرة والاقبال على الدنيا وزخارفها لقلة المذكرين والدعاة الى الله على البصيرة واليقين حتى صارت مجالس المنسوبين الى العلم والدين في مثل مجالس الغافلين المعرضين المشغولين بحديث الدنيا وذكر أحوال أهلها فلذلك عم البلاء واستطال الداء وخرست ألسن المذكرين بالله وغلب الجهل والغفلة على عامة الناس حتى توهم من ليس له علم بأحوال من مضى من أهل الحق والهدى أن الشأن على مثل ذلك كان وهيهات هيهات ولا مرد لما قد ذهب وفات ، ذهب العلم بذهاب أهله وذهاب الطالبين له والراغبين فيه ، وفي الحديث الصحيح «ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض أهله حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا اذا سئلوا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» فانظر كيف صار نطق هؤلاء الجهال المترسمين أضر على الناس من سكوتهم ، تعرف به فرقا بين علماء الدين هم ورثة الأنبياء وأئمة الهدى وبين الجهال المتشبهين بهم والمترسمين برسومهم في رأي العين وظواهر الأحوال ، هؤلاء ينفعون الناس بعلمهم ويهدون الناس بهديهم ويبينون للناس سبيل ربهم ومافيه فوزهم ونجاتهم في معادهم ومعاشهم والآخرون يضلون الناس بفتواهم ويلبسون عليهم أمرهم ، وسيأتي فيما بعد مزيد شرح في أحوال الجهال المترسمين المتشبهين بالعلماء في ظواهر أحوالهم مع افلاسهم عن حقائق العلم والتقوى واخفاقهم من بضائع الدين والهدى من طوائف المغرورين الذين غرتهم الحياة الدنيا وغلب عليهم اتباع الهوى المشار اليه بقوله عز من قائل — قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا — وقد ظهرت البدع والحوادث وفشت المنكرات واستولت الغفلة والاعراض عن الله وعن الدار الآخرة على الخاص والعام ، فلم يبق عذر لأهل الحق والدين من أهل العلم واليقين في السكوت عن بيان الحق والهدى والدعاء الى الله والى سبيله بالأقوال والأفعال والسعي بكل مستطاع وممكن في اماتة البدع والمحدثات وازالة المنكرات ، وقد قال عليه الصلاة والسلام «اذا ظهرت الفتن أو قال البدع وسب أصحابي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا» وقد تعرض لبعض أهل العلم أوهام فتمنعه وتصده عن الدعوة الى الحق والنشر للعلم ، منها أن يقول اني غير عامل بعلمي فكيف أعلمه وأدعو اليه ، وقد ورد من الوعيد في ذلك مالا مزيد عليه ، فيقال له : التعليم للعلم من جملة العمل به والذي يعلم ولا يعمل بعلمه خير بكثير من الذي لا يعمل ولا يعلم ، واذا لم تقدر على الخير كله فلا تعجز عن القيام ببعضه ، وعليك أن تعلم وعليك أن تجتهد وتعزم على العمل بما تعلم ، ولا شك أن الوعيد الوارد في حق من يعلم الناس ولا يعمل بما يعلم هو ألزم وأجدر بالذي لا يعمل ولا يعلم لأن الأول فرض الله عليه فريضتين فقام باحداهما وقصر عن الأخرى ، والثاني ترك الفريضتين جميعا فهو بالوعيد أولى وبالعقوبة أحرى ، ومنها أن يقول في نفسه ان الدعاء الى الله والارشاد لعباد الله تعالى مرتبة رفيعة ومنزلة مشرفة هي من شأن أئمة الهدى والدين ووظيفتهم وأنا لست كذلك ولا من أهله فيحمله استصغاره لنفسه واحتقاره لها وتواضعه وانخفاضه على السكوت عن الدعاء الى الله والقيام بوظيفة الارشاد ويتوهم أن ذلك من التواضع المحمود ومعرفة الانسان بقدر نفسه ووقوفه عند حده ، وهذا من التوهمات الفاسدة لان الحق لا يمنع عن الحق والخير لا يصرف عن الخير فعليه أن يجتهد ويشمر في الدعاء الى الهدى ، والدلالة على الخير مع التواضع والخضوع والاستشعار للخشية والخشوع والاعتراف بالتقصير واحتقار النفس وذلك هو الكمال والجمع لاوصاف الرجال الذين لا تمدهم وساوس الشيطان ولا تصرفهم مخيلاته وتلبيساته

وزروعه للشر في معرض الخير، ومنها أعني تلك الأوهام أن يشغل العالم نفسه وأوقاته بمواصلة الأوراد
وتتابع الوظائف من العبادات من تلاوة وذكر ونحو ذلك، ويرى أن ذلك أفضل له وأولى من الدعاء إلى
الله وسبيله ونشر العلم النافع في الدين. والحق أن الدعوة إلى الله والنشر للعلم النافع مع الإخلاص لله فيه
أفضل من العبادات اللازمة من نوافل الصلوات والأذكار لما في العلم من تعدي النفع والاحتياج الخاص
والعام والصغير والكبير إليه، وفي الحديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» وفي
حديث آخر «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» ومع ذلك فلا ينبغي
للعالم الداعي إلى الله أن يهجر الأوراد ويقصر عن وظائف العبادات بل ينبغي له أن يجعل لها أوقاتا تخصها
ويحسن التفرغ للعبادات فيها خصوصا بالليل وأوقات النهار التي لا ينشط فيها لنشر العلم أولا يحضر فيها
الطالبون المستفيدون، وقد قال الإمام مالك رحمه الله: اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا
هذه العبادة طلبا لا تضر بالعلم. وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: يقسم الليل أثلاثا ثلثا للصلاة وثلثا
لدراسة العلم وثلثا للنوم. وقد ذكر حجة الإسلام رحمه الله تعالى: في كتاب ترتيب الأوراد في الإحياء
كيفية في ترتيب أوقات العالم وتوزيعها تخصه، فليتمسك العالم بما ذكره هنالك وليعمل عليه والله يتولى
هداه، وهذه التوهمات التي ذكرناها وما في معناها مما لم نذكره قد يقع لبعض العلماء العاملين الموصوفين
بتقوى الله وخشيته. وأما التوهمات والحسبانات التي تقع للعلماء المترسمين الذين لم يتحققوا بتقوى الله
وخشيته ولم يحرصوا على العمل بعلمهم فأمور كثيرة كلها ترجع إلى أحوال أهل الغفلة والتخليط فتصدهم
عن الدعوة إلى سبيل الله وعن نشر العلم ابتغاء وجه الله مثل الاشتغال بأحوال دنياهم وأمور معاشهم
ومداهنة أهل الباطل من وجوه أهل الدنيا ومراعاتهم ومثل التسويف وتزجية الأوقات من حين إلى حين
ومثل الإبقاء منهم على ستر أحوالهم وتقصيرهم فيتوهمون أنهم إذا دعوا إلى الله وإلى الدار الآخرة وهم
على خلاف ذلك تبين للناس نقصهم وسوء أفعالهم وقبيح سيرهم فيسقطون بسبب ذلك من أعين الناس
وتنحط منازلهم عندهم فلا يبقى لهم جاه ولا مقدار عند الخلق وهم أحرص شيء على إقامة جاههم ومنزلتهم
في قلوب الناس لشدة رغبتهم في الرياسة التي هي من أقوى لذات الدنيا وأغلب الشهوات على النفوس المتبعة
للهوى. ومن العلماء المترسمين من تكون العلوم التي هو مشتغل بها محصل لها ليست هي من علوم
الدعوة إلى الله وإلى سبيله والتذكير به وبأيامه وآلائه ولا بوعده ووعيده وصاحبها يعد نفسه عالما ويعده
من هو كذلك في مثل حاله من الجهال وذلك مثل الذي يكون علمه في دقائق علم الكلام والتبحر فيه ومجرد
الفروع النادرة الوقوع من الفقه والفتاوى الكائنة بهذه المثابة ومثل الذي يكون علمه مجرد علوم الآلات
اللغوية والأدوات الأدبية فهذه العلوم وأمثالها ليست هي من علوم الدعوة إلى الله وإلى طريقه ولا المخوفة
بلقائه ووعده ووعيده ولا المحذرة من إضاعة أمره وركوب نهيه وإن كانت تعد من العلوم في الجملة ولكنها
ليست من العلوم النافعة للخاص والعام ولا التي تدعو إليها حاجة الناس في دينهم وأمر آخرتهم، وقد قيل
العلوم كثيرة وما كلها بنافعة والعلوم بمنزلة الأطعمة والأدوية يكون بعضها نافعا ومهما في حق كل أحد
وبعضها للبعض دون البعض وبعضها مضر للبعض أو للكل وفي ذلك تفصيل يطول ذكره فكل من يكون
علمه مجرد هذه العلوم التي ليست بنافعة ومهمة في الدين كان إطلاق اسم العالم عليه صورة لا حقيقة لها
وربما كان علمه ذلك سببا لوقوعه في سخط ربه وهلاك نفسه وذهاب آخرته فينبغي أن يضيف العالم بها
إليها العلم بالعلوم الدينية الأخروية التي تقارنها المخافة والخشية لله ويكثر فيها ذكر الوعد والوعيد والتزهيد
في الدنيا والترغيب في الآخرة، ونحو ذلك فهذه هي العلوم التي قال فيها سفيان الثوري رحمه الله: طلبنا العلم

لتبرأ الذمة فأبى العلم أن يكون إلا لله ، وكما قال الامام حجة الاسلام رحمه الله فى معنى ذلك ، وكما أنه قد تعرض للعالم التقى وللعالم المخلط أوهام وظنون لتثبطه وتعوقه عن الدعوة الى الله والدلالة على الخير والنشر للعلم فقد يقع للجاهل أوهام فتصده وتصرفه عن طلب العلم والتبصر فى الدين مثل أن يتوهم أنه ان طلب العلم وعرفه توجهت عليه حقوق لله ولعباده ولزمه القيام بأوامر الله فيه واجتناب نواهيه ومناهيه فهو يحسب بجهله أنه ان لم يعرف العلم ويطلبه سلم من تلك المطالبات وخلص ، وهذا ظن فاسد وعذر بارد ، حتى أنك ترى بعض الجهال ، قد يمتنع عن حضور مجالس أهل الحق والدعوة الى الله و يعدل عنها مخافة أن يسمع ما يلزمه العمل به من طاعة الله ، والاجتناب لما حرم الله عليه من معصيته ، أو من الزهد فى الدنيا وشهواتها التى قد استولت عليه وأخذت بمخنقه أو من الوعد والوعيد بثواب الله وعقابه ، و يحسب أنه ينجو من ذلك و يسلم من المطالبة بما هناك بسبب جهله وعدوله عن الحق وأهله ، وهيهات هيهات فان الله لا يعذره بجهله ولا يزيده بذلك الا بعدا وعذابا وخزيا ونكالا ، وقد شغل الجاهل عن طلب الحق ومعرفة الدين طلب الدنيا واستغراق الأوقات فى الاشتغال بها والاغترار بزخارفها والجمع لحطامها حتى لا يبقى له وقت ولا يصفو له زمن لطلب الحق والدين فيكون حظه الدنيا والشغل بجمعها ومنعها والتمتع بشهواتها ولذاتها فلا يكون له فى الدنيا والآخرة من خلاق ولا نصيب ، وهو يتوهم لعظم جهله وفرط غفلته أن طلب الدنيا أهم فى حقه وأوجب عليه وأولى به من طلب معرفة الدين ، والتبصر فيه والعلم بأوامر الله ونواهيه ، وفى أمثال هؤلاء يقول الله تعالى - يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون - وقال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون - والحق أن الاشتغال بطلب معرفة الدين والتبصر فى العلم والقيام بحق الله علما وعملا هو الأصل والأساس والرأس والذى عليه التعويل وأمور الدنيا كلها إنما هي تابعة أعنى المهم منها : وأما ما ليس بمهم فمنهى عنه ومزهد فيه فانظر كيف يعكس الجاهل الغافل الأمور بجهله ويرد الرأس ذنبا والذنب رأسا والتابع متبوعا والمزهود فيه والمرغوب عنه مرغوبا فيه تعرف بذلك شؤم الجهل ومضرته وكونه بلاء وخزيا على أهله فى الدنيا والآخرة ولذلك قيل :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقيل أيضا :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسادهم قبل القبور قبور

وقد غلب الجهل واستولى على أهل هذا الزمان السيء حاله وذهب بهم كل مذهب حتى صار الكثير منهم أو الأكثر لا يعلم ولا يدرى بالحق والدين ما هو ولا بالآخرة والمصير الى الله كيف هو ، فصارت تلك بلية عظيمة عم ضررها الجاهل والعالم والعام والخاص ، فأما تضرر الجاهل بها فليس بخفى - لأنه قد أضاع بسببها ما فرض الله عليه من معرفة دينه وتعلم أحكامه ، وأما تضرر العالم بها فلتقصيره فى الدعاء الى سبيل الله وتعليمه الناس ما يجهلونه من أحكام دينه مع تمكنه من ذلك فاذا صار الجهال بحيث لا يعلمون وجوب طلب ما فرض الله عليهم طلبه من علم الدين وجب على العلماء تعريفهم بذلك وحرم عليهم السكوت عنه ولم يعذرهم الله فى ترك ابتداء الجهال بالتعريف والتعليم للجاهل الذى يكون هذا وصفه وللعلماء فى ذلك شغل شاغل عن كثير من مهماتهم .

واعلم أن فى الاسلام فترات والناس اليوم فى بعضها اذ قد صار كثير ممن تشتمل عليه دائرة الاسلام لا يعلمون ما افترض الله عليهم من طاعته وما حرم عليهم من معصيته ولا يعلمون بوجوب طلب علم ذلك عليهم ثم العمل به فمتى ينهضون لذلك و يأخذون فى طلبه وهم لا يعلمون بوجوب ذلك عليهم فتعينت المطالبة على أهل العلم والدعوة الى الله فى حقهم بأن يعرفوهم بوجوب ذلك عليهم ويحثوهم على طلبه ابتداء منهم ؟

فإن من لا يعرف ولا يعلم لا يمكن منه الطلب والتعرف وهذه الفترات التي تكون في الاسلام تقع بين الدعاة الى الله والى دينه تشبه الفترات التي تكون بين الرسل من بعض الوجوه ، وقد أشار الى ذلك الشيخ العارف عبد الوهاب بن أحمد الشعراني رحمه الله في أول كتابه المسمى : تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر ، وهي غير الغربة التي تكون للدين في آخر الزمان واقتراب الساعة التي ، قال فيها عليه الصلاة والسلام «بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي» الحديث وقال عليه الصلاة والسلام «دخل الناس في هذا الدين أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا كما دخلوا» فمن أهل هذا الزمان من لا يعرف الحق والدين ، ولا يعرف ان معرفة ذلك واجبة عليه ، ومنهم من يعرف وجوب ذلك ولكنه لا يطلب معرفته تساهلا وتغافلا أو تشاغلا بأمور الدنيا واستغراقا في جمعها والتمتع بشهواتها ، ومنهم من عرف ذلك وطلب معرفته ولكنه لم يعمل بما عرفه وعلمه ، ومنهم من عرفه وعمل به ولكنه لم يخلص لله في ذلك بل علم وعمل لأغراض دنياوية وحظوظ فانية وكل هذه الأوصاف ضالون مفتونون غير أن بعضهم أضل من بعض وأشد فتنة وما أحسن ما قال بعض الأئمة من السلف الصالح رحمهم الله : الناس كلهم موتى الا العلماء ، والعلماء كلهم موتى إلا العاملون ، والعاملون كلهم موتى الا المخلصون ، والمخلصون كلهم موتى الا الوجلون ، والوجلون على خطر عظيم انتهى بمعناه ، فقد علمت بما تقدم ذكره من إعراض العامة عن معرفة الدين والطلب للحق ورضاهم بالجهل والعمى بدلا عن العلم والهدى منها ، قد تضاعفت المؤنة وعظمت الطالبة على أهل الدعوة الى الله والبصيرة بدينه والمعرفة بعلمه حيث تعين عليهم كمال القيام والحرص على ارشاد الخاص والعام وبدايتهم بذلك واشاعته فيهم ونشره بين أظهرهم ليعرف ذلك من لم يعرفه ويعلمه فتتضح محجة الله للسالكين وتقوم حجة الله على الهالكين : وعلى الدعاة الى الله والعلماء بدينه أن يكونوا على نهاية وغاية من الرحمة والشفقة على المسلمين ومن الحرص والرغبة في ارشادهم وهدايتهم ودعائهم الى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة وأن يكونوا على نهاية من الصبر والاحتمال وسعة الصدور ولين الجانب وخفض الجناح وحسن التأليف ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم - واخفض جناحك للمؤمنين - وقال تعالى - فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك - الآية ، وان احتاجوا الى شيء من الشدة والغلظة مع من لا يصلحه الا ذلك فيكون ذلك في الظاهر دون الباطن وعلى وجه لا يقتضي ولا يفضي الى تنفير وفرقة وان دخل عليهم أعني أهل الحق والدعاة الى الله شيء من الأذى من الجاهلين بسبب ذلك كان عليهم أن يصبروا ويعرضوا أو يقولوا خيرا ، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - وقال تعالى - وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - فقد تأست الأنبياء والمرسلون وأتباعهم من أئمة الحق والهدى من طوائف الجاهلين والمعرضين من الأذى أمرا عظيما فصبروا واحتسبوا ولم يزدهم ذلك الا حرصا على ارشادهم وهدايتهم الى سبيل الله تعالى ونصيحتهم في دين الله وحثهم وتحريضهم على اقامة أمر الله واجتناب نهيه . هذا الذي درج عليه أنبياء الله ورسله والأئمة من أممهم والدعاة الى دينهم من هذه الأمة المحمدية وغيرها من الأمم السالفة .

وأما اذا لم يقابل الداعي الى الله والى دينه بالرد الصريح وبالايذاء ولكنه لم يسمع منه ولم يقبل دعاؤه أو قبل منه وأجيب ولكن لم يظهر على المستجيبين آثار الاستجابة من الأخذ بالحق والعمل به فليس له مع ذلك عذر في ترك الدعاء الى الله والى سبيله ، ولو أن يستجيب له في الزمن الطويل العدد القليل ، ومثل هذا الحال الذي وصفناه يكون حال الداعي الناصح في أكثر الجهات الاسلامية في هذه الأزمنة لا يؤذى ولا يرد عليه الرد الصريح ، بل يقبل الحق منه أولا يقبل ويعمل بما يدعو اليه ، أولا يعمل وربما يجيء زمان بعد هذه الأزمنة وأيام بعد هذه الأيام يشتد فيها النكير ويعظم فيها الأذى على من يدعو الى الحق

ويَنصح في الدين فليغتنم الداعي الى الله والى الهدى في هذه الأيام الدعاء الى الله فيها والى دينه ، والحال ما وصفناه من قبل أن يأتي زمان آخر وناس آخرون يردّ عليه الحق على أهله ردًّا صريحًا ويؤذون على ذلك أذى قبيحًا ، بل ربما يؤذون بالأذى من قبل أن يدعوا الى الحق والهدى ، وذلك عند اقتراب الساعة ، وظهور أشراطها وأماراتها العامة ، كما يعرف ذلك من نظر في الأخبار والآثار ، ومن نعم الله على الداعين الى الله والى دينه في هذا الزمان أنهم اذا دعوا ونصحوا باللسان العام لم يرد عليهم ولم يؤذوا ، وأيضا اذا خصّوا اللهم الا أن يكون ذلك من بعض الجبارين والمتكبرين ، من أمراء الجور وولاة السوء ، فليتق الدعاة الى الله التخصيص والتعيين ليسلموا من سوء ردهم وفتنتهم وأذيتهم فانهم ربما ضعفوا عن احتمال ذلك وضاقت صدورهم وضجروا وتبرموا وجعلوا ما يلقونه من هؤلاء المفتونين حجة لهم في السكوت عن النصيحة ورخصة في الامساك عن الدعاء الى الحق والدين وليتأسوا بسيد النبيين وامام الناصحين محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لا يصرح بذكره ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا كما في الأحاديث وذلك منه تألفا ورفقا وتلطفا وسترا ، وقد قال في وصفه عليه الصلاة والسلام ربه عز من قائل كريم - وانك لعلى خلق عظيم . وما أرسلناك الا رحمة للعالمين . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم - صلوات الله وسلامه عليه وزاده شرفا وكرامة لديه ، ورزقنا كمال الاتباع له وحسن التأسي كما قال تعالى - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا - فقد تبين واتضح بما ذكرناه أنه لا عذر ولا رخصة للعلماء بالدين من الدعوة الى الله وبذل النصيحة للمسلمين وتعريفهم بما يجب من طاعة الله واجتناب معاصيه ، وانه لا عذر ولا حجة لأهل الجهل في ترك القبول منهم والاستجابة لهم والأخذ عنهم بل عليهم أن يطلبوا ذلك ويحرصوا عليه ويقدموه على كل شغل ومهم من مهمات معاشهم فان قصروا في طلب ذلك والسعي له لم يسع العلماء بالدين والدعاة الى سبيل الله رب العالمين أن يسكتوا كما سكتوا أو يتركوا كما تركوا فيكونون سواء في الاضاعة والاهمال والتهاون بحق الله الكبير المتعال - قال حجة الاسلام رحمه الله تعالى في آخر الباب الثالث من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحياء : اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن ارشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي ؟ ومنهم الأعراب والاكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلاد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية ، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج الى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فان أكثرها تكون شبهة مغصوبة ، فان قام به واحد سقط الحرج عن الآخرين والا عم الحرج الكافة أجمعين ، أما العالم فلتقصيره في ترك الخروج ، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم ؛ وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرّف غيره والا فهو شريكه في الاثم ، ومعلوم أن الانسان لا يولد عالما بالشرع ، وانما يجب التبليغ على أهل العلم فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها ، ولعمري ان الاثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر ، وهو بصناعتهم أليق لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش فهم قد تقلدوا أمرا لابد منه في صلاح الخلق وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فان العلماء ورثة الأنبياء وليس للانسان أن يقعد في بيته ولا يخرج الى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة بل اذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي وكذلك كل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه ، وهو قادر على تغييره فلا يجوز له

أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود فى البيت بل يلزمه الخروج فإن كان لا يقدر على تغيير البعض وهو يحترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج لأن خروجه اذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا تضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وانما يمتنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح ، فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم الى جيرانه ، ثم الى أهل محلته ، ثم الى أهل بلده ، ثم الى أهل السواد المكتنف لبلده ، ثم الى أهل البوادى من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا الى أقصى العالم ، فان قام به الأدنى سقط عن الأبعد والأحرج به كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه ، وهو قادر على أن يسعى اليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تزجية الأوقات ، أى اضاعتها فى التفريعات النادرة ، والتعمق فى دقائق العلوم التى هى من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا الا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه والسلام انتهى ما ذكره رحمه الله تعالى .

وليكن ذلك آخر الكلام فى المقدمة المباركة ، ونشرع الآن مستعينين بالله ومعتمدين عليه فى ذكر الأصناف الثمانية :

﴿ الصنف الأول فى العلماء بالدين والقول فى نصيحة العلماء وتذكيرهم وتخويفهم وتحذيرهم ﴾

اعلم أن العلماء هم الرؤوس من الناس والوجوه فيهم ومثلهم منهم مثل الملح من الطعام يصلح الطعام بصلاحه ويفسد بفساده ، ولذلك قيل :

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح اذا الملح فسد

فالقراء هم العلماء ، وقد كان يطلق هذا الاسم عليهم فى الأزمنة السالفة ، فان حملة القرآن كانوا هم العلماء بدين الله وبأمره وأحكامه حيث كانوا اذا قرؤا القرآن تفقهوا فيه وعلموا آمره وناهيه وواعظه وزاجره وما ينبغى الوقوف عنده منه ، ولذلك عز من جمع القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انه قبض صلوات الله وسلامه عليه عن ألوف كثيرة من الصحابة لم يجمع القرآن منهم إلا نفر قليل ، قيل أربعة ، وقيل سبعة على خلاف فى ذلك . وكان من يحفظ سورة البقرة وسورة آل عمران يعد من علمائهم وفقهائهم ، وفى الحديث من استظهر القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه غير انه لا يوحى اليه ، ومعنى استظهر القرآن : أى حفظه عن ظهر قلب ، وهو الحفظ بالغيب ، فالقرآن تنزيل عظيم من رب عظيم على رسول كريم قد جمع الله فيه علم الأولين والآخرين وأخبار السابقين واللاحقين كما قال عليه الصلاة والسلام « فيه نبأ من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم ، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن التمس الهدى من غيره أضله الله » الحديث : فقد آل الأمر الى أقوام يقرأ القرآن أحدهم من فاتحته الى خاتمته لا يدرى ما هو ولا فيما أنزل ولا لأى شىء أنزل ، ثم انه لا يهمه انه لا يعلم ولا يدرى حتى تنبعث منه داعية لأن يطلب علم ذلك ومعرفته ، وذلك من فرط غفلته وشدة انصراف قلبه عن فهم كتاب ربه استغراقا بالدنيا ورغبة فى شهواتها واغترارا بزخارفها ، فمن أضل عن هذا الوصف وصفه وهذا الشأن شأنه - أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - فقد علمت أن القرآن العظيم أصل العلوم ومعدنها ومجمعها وموطنها . قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين - وقال تعالى - ما فرطنا فى الكتاب من شىء - فاذا رأيت الرجل يقرأ القرآن ولا يرتله ولا يتدبره ولا يفهم فيه ورأيته يحضر عند تلاوته وهو يلهو ويلغو فلا تشكن فى أنه غافل محجوب مصروف عن آيات الله قد حل به من الله مقت وسخط وقد أقفل الله على قلبه . قال تعالى - أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

لقفالها

أقفالها - ولا يغرنك أنه يقرأ القرآن . وقد ورد « إن أكثر منافق هذه الأمة قراؤها » وما ينفعه ذلك وقد أصبح القرآن حجة لله عليه كما قال عليه الصلاة والسلام « والقرآن حجة لك أو عليك » وفي الحديث الآخر « من جعل القرآن أمامه قاده الى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه الى النار » فتبين أن من أخذ بالقرآن إيمانا وعلما وعملا فاز وسعد في الدنيا والآخرة ومن ضيعه وتعدى حدوده خاب وخسر وضل عن سواء السبيل وصار ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها وممن كذب بآيات الله وصدف عنها . قال الله تعالى - سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون - وقد قال عليه الصلاة والسلام « ان الله يرفع بهذا القرآن أقواما ويضع به آخرين » فاجتهد أيها القارئ أن تكون ممن يرفعه الله بالقرآن بأن تقرأه كما أنزل وأن تتلوه حق تلاوته فترتله وتتدبر معانيه وتقف عند كل آية منه وتنظر فيها . هل أنت بها عالم وهل أنت بها عامل ؟ فان كانت من آيات الأمر نظرت هل أنت لذلك الأمر ممتثل ؟ وان كانت من آيات النهي نظرت هل أنت لذلك النهي مجتنب ؟ وكذلك في بقية الآيات ، وان مرت بك آية فوجدت أنك لا تعلمها سألت عنها من يعلمه فبذلك تصير من التالين لكتاب الله كما يجب ويرضي ان شاء الله تعالى ، ولا تكن ممن يقرأ ولا يدري ويهذ القرآن هذ الشعر وينثره نثر الداقل فيصبح من النادمين ويكون في الآخرة من الخاسرين ، وإذا كنت ممن حفظ القرآن وتلاه ثم لم تعمل ولم تدبر فى علماء الدين فلست بحفظه ولست تتلوه حقيقة ، وإنما ذلك مجاز أو صورة تقوم به عليك الحجة فقط فان القراء هم العلماء مهما كانوا يقرءون القرآن كما أمروا ويتلونه كما وصفوا حسب ما تقدم من البيان والله الهادي الى الصواب ، وقد طال الكلام وامتد في شأن حملة القرآن وانهم كانوا هم العلماء فيما قد مضى من الأعصار والأزمان حيث كانوا يحملونه مع العلم به والعمل بما فيه الى أن صاروا بحيث لا يعدون من أهل العلم ولا يوصفون به ، فانظر رحمك الله تفاوت ما بين من مضى ومن بقي . ثم اعلم أنه قد غلب على أهل العلم الغرور والفتن ، واستولى عليهم الاعراض والغفلة وتركوا العمل بالعلم وصار العلم على ألسنتهم دون قلوبهم وفي أقوالهم دون أفعالهم ، فصار العلم بذلك حجة لله عليهم كما قال عليه الصلاة والسلام « العلم علمان : علم في القلب فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان وذلك حجة الله على ابن آدم » . وفي دعائه عليه الصلاة والسلام « اللهم انى أسألك علما نافعا » .

واستعاذ صلوات الله عليه وسلامه من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع . فتبين بذلك انقسام العلم الى نافع وغير نافع وانقسام أهل العلم الى منتفع به وغير منتفع حتى ان العلم قد يكون من العلوم النافعة ولا ينتفع به صاحبه اذا كان يعمل على خلاف عليه فيكون مثله كمثال الاناء الخبيث اذا جعل فيه الطعام الطيب خبثه . وقد قال بعض العلماء رحمه الله : زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة في أصل شجرة الحنظل كلما ازدادت ريا ازدادت مرارة وأراد بشجرة الحنظل شجرة الحدج ، وعلى هذا فيكون كلما قل ريه بالماء قلت مرارته فيكون العالم السوء كلما قل علمه قلت فتنته وفساده ومضرته ، ولا تستبعد هذا فان مثل بني آدم في طباعهم واختلافها مثل الأشجار والأراضي في اختلاف طبائعها وجواهرها ، فان من الأشجار والأرضين ما يحسن وينمو ويطيب بوصول الماء اليه وريه منه ، ومنها ما يكون على الضد من ذلك مثل الأشجار المرة وذوات الشوك ومثل الأراضي السبخة والقيعان المعطلة التي يزيدها الماء مرارة وشوكا وملوحة وفسادا ، ومن عجائب ما ذكر أن مطر الربيع يقع بالمواضع التي يكون فيها الدر واللؤلؤ فتفتح له الأصداف أفواهها وتنطبق عليه فيصير فيها باذن الله تعالى درا ولؤلؤا وتفتح له الأفاعي أفواهها فيكون فيها سما ناقعا وهو مطر واحد في حين واحد ، فيختلف الى هذه الغاية باختلاف مواضعه ، والمحال القابلة له فلا تستبعد بعد هذا مصير العلم في الرجل السوء ضارا أو غير نافع ، والعلم إنما هو عرض يقوم بغيره وآلة صالحة للصلاح والنفع اذا وقع عند أهل الصلاح والانتفاع أو بضد ذلك اذا وقع عند أهل الفساد والاضرار ، ثم ان العلم الذي يكون عند العالم السوء فليس هو

العلم الحقيق الديني ، بل هو صورته وقالبه وهو على لسانه وظاهره ليس في قلبه ولا في باطنه شيء منه . قال الامام مالك رحمه الله : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يقذفه الله تعالى في القلب ، وفي كلام ابن مسعود رضي عنه مثله وقال : إنما العلم الخشية ، وفي بعض الآثار العلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل : أي يرتحل معناه وحقيقته ونوره وبركته ويبقى رسمه وصورته تقوم به الحجة على صاحبه ، وللإمام الشافعي رحمه الله نظما :

شكوت الى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني الى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

يشير بذلك الى حقيقة العلم وروحه على مثل ما قررناه و بيناه ، وقال عمر رضي الله عنه : أخوف ما أخاف عليكم ، أو قال على هذه الأمة فاجر عليم اللسان ، وقال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك هذا ينفر الناس بتهتكه وهذا يغر الناس بتنسكه انتهى . فقد تبين واتضح أن العالم التقي المصلح خير كله ونفع وصلاح لنفسه وللمسلمين ، وأن العالم الذي لا يتقي الله ولا يخشاه شر كله وبلاء وفتنة على نفسه وعلى المسلمين ، وقد ضربوا للعلماء السوء أمثالا ، وقد تروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أحدها : أن مثلهم مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن . والثاني أن مثلهم مثل القبور ظاهرها معمور وباطنها عظام الموتى ، وثالثها مثل البيت المظلم وعلى ظهره المصباح ، الضياء على ظاهره والظلمة على باطنه . وأشد من هذا كله وأشنع ما ضرب الله المجيد في كتابه العزيز للعلماء السوء من الأمثال حيث شبههم بأخس الدواب الحمير والكلاب حيث يقول عز من قائل - مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا - وقال تعالى - واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . الى قوله تعالى . فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث - ولا شك أن الدواب والبهائم أحسن حالا ممن نبذ كتاب الله وضيع أمره واستهان بحقه ، فان البهائم والدواب تموت ثم تصير الى التراب وهو يصير الى النار والعذاب والبوار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وقال عليه الصلاة والسلام « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا » وقال عليه الصلاة والسلام « يؤتى بالعالم الى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها في النار كما يدور الحمار بالرحا » الحديث والأقتاب : هي الأمعاء ، ثم إن العلم فنون وأنواع كثيرة ، والعلماء أصناف كثيرة وعلى مراتب ومنازل متفاوتة ، فأما العلوم الدينية الشرعية فيجب وجوبا متأكدا أن لا يريد العالم بها والمتعلم لها بتعليمها وتعلمها إلا وجه الله والدار الآخرة ، ويجب ويتأكد العمل بها ونشرها والدعاء اليها لوجه الله والدار الآخرة ، وقد وعد الله على القيام بذلك رضاه وثوابه العظيم وتوعد على ترك ذلك والتقصير فيه بسخطه وعذابه الأليم ، ومن العلوم ما ليس بديني ولا شرعي بحكم الاصالة كعلوم اللغة والحساب والطب ، فيجوز أن تعلم هذه العلوم وتتعلم لقصد الأمور الدنياوية المباحة ، ولو قصد العالم بها والمتعلم لها أمر الدين ، وذلك فيما يصلح التوسل به الى الدين ويتوصل به اليه ويستعان عليه كان له في ذلك ثواب عظيم وأجر من حيث أن للوسائل حكم المقاصد . وأما العلماء فأفضلهم وأرفعهم عند الله منزلة من يتعلم العلم ويعمل به ويعلمه ابتغاء وجه الله والدار الآخرة من غير أن يكون له قصد في ذلك ولا غرض آخر من أغراض الدنيا البتة أولئك هم المفلحون الفائزون برضوان الله وجواره في دار كرامته ، والسائرون على سبيل أنبيائه ورسله ، والوارثون لهم الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء » عليهم السلام ، ومن أهل العلم من تكون نيته في تعلمه العلم وتعليمه مقصورة على الدنيا ونيل الجاه والمال والمنزلة عند الناس وأشباه ذلك من الحظوظ الفانية ولكنه يستشعر في نفسه سوء حاله وخسة مقصده ونيته وشؤم تقصيره ، فذلك على خطر وعاقبته مخوفة ومع ذلك فالتوبة مرجوة

والانقياد من غفلته وسوء نيته ، ومن أهل العلم من يكون نيته وقصده بعلمه المنافسة والمباهات والمجادلة والمماراة والتمكن من حظوظ الدنيا ونيل الولايات فيها وحصول المنزلة عند أهلها ونحو ذلك من حظوظ الدنيا الخسيسة وهو مع ذلك يضمر في نفسه ويستشعر فيها أنه على حالة مرضية ونية محمودة ومنزلة عند الله رفيعة لترسمه برسوم العلماء في الزى والمنطق وظواهر الأحوال ، فهذا العالم بأشر المنازل وأوضع المراتب ويكاد يدخل في عموم قوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - . قال حجة الاسلام رحمه الله : فيمن هذا وصفه فهذا من الهالكين ، ومن الحمقاء المغرورين ، اذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، قيل وما هو يارسول الله ؟ . قال العلماء السوء» انتهى

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من طلب علما مما يبتغى به وجه الله لايطلبه إلا لينال به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» وعرف الجنة ريحها وهو كما في الحديث «يوجد من مسيرة خمسمائة عام» وقال عليه الصلاة والسلام «من طلب العلم ليجادل به العلماء ويمارى به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» وذكر في بعض الأخبار : أن رجلا صحب موسى عليه السلام ولازمه حتى أخذ عنه العلم ثم جعل يقول حدثنا موسى كليم الله حدثنا موسى صفى الله حتى أثرى وكثر ماله ثم فقده موسى ، فجعل يسأل عنه فلا يسمع له بخبر الى أن جاءه رجل وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فسأله موسى عنه هل رآه ؟ فقال له نعم هو هذا الخنزير ، فسأل موسى عليه السلام ربه أن يعيده الى صورته ليسأله عما أصابه فأوحى الله اليه لو سألتنى بما سألنى به آدم فمن بعده لم أعده الى صورته ولكنى أخبرك عنه لم صنعت به هذا لأنه كان يطلب الدنيا بالدين . وأغلظ من هذا ما روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا ، وفي رواية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع» ، وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ ، وفي الصمت سلامة وعلم . انتهى الأثر والخبر المذكور إلى آخره ، وفيه تشديد عظيم حذفناه اختصارا ، ذكر فيه طبقات النار ، وان في كل طبقة منها صنفا من العلماء السوء وصفهم بأوصاف قبيحة منكرة ذكرها في كتاب العلم من الاحياء . فالأصل الذى ينبغى لطالب العلم أن يعول عليه هو اصلاح النية في أول طلبه ، وهو أن يريد به وجه الله والدار الآخرة ، فان النية هي الأساس الذى يبنى عليه فاذا صلح واستقام صلح البناء واستقام فليعتن طالب العلم بذلك أشد الاعتناء وليحرص عليه أتم الحرص ، وقد قال عليه الصلاة والسلام «انما الأعمال بالنيات» الحديث ،

وقد ذكر الامام الغزالى رحمه الله في أول الهداية تنبيها جامعا نبه به طالب العلم على ماهو الفاسد من النيات والصحيح منها وماينبغى ومالاينبغى منها ، وذلك قوله : أما بعد . فاعلم أيها الحريص على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة فيه وفرط التعطش اليه أنك ان كنت تقصد بطلب العلم الى قوله وحيتان البحر تستغفر لك اذا سعيت . ثم ان العالم الفاضل المحمود حاله الرفيعة درجته عند ربه المرفوعة الفائز في آخرته هو العالم العامل بعلمه الذى ينشر العلم ويدعو اليه ويعلمه لعباد الله ابتغاء وجه الله ومرضاته ورغبة فيما عنده من ثواب الآخرة ، ثم يليه العالم الذى يعمل بعلمه ولكنه لم يتصد لتعليم عباد الله ، فان كان الحامل له على ترك التعليم البخل بالعلم والرغبة في كتمانه عن أهله فهو بذلك آثم ومذموم عند الله ورسوله وان كان الحامل له على ذلك شغله بنفسه واستغراقه بوظائف دينه ، والعمل لآخرته ، وقد استغنى الناس عن تعليمه لقيام غيره من العلماء بتعليم العلم ونشره للناس فلا بأس بما فعل ، فقد أخذ بمثل ذلك جماعة من السلف الصالح والخلف المبارك سيما في علوم الأحكام والفتاوى ونحوها ، وسيأتى زيادة بيان لهذا الأمر في ذكر أوصاف المتجردين لعبادة الله والمتفرغين لها من علماء الدين وعباد الله الصالحين ان شاء الله . ثم يلى هذا العالم

من العلماء الابلج الذى لايجد ولا يشمر فى العمل بما يعلم ، ولكنه يعلم الناس وينشر العلم لهم ، ويكون الحامل له على ترك العمل بالعلم مع التعليم اما كسل وتسويف واما أنه يستثقل العمل لمعنى آخر من معانى تسويلات النفس ويستخف التعليم لما فيه من الشهرة والذكر بين الناس والمنزلة عندهم ، وقد شبهوا هذا العالم بالابرة التى تكسو الناس وهى عارية ، وبالشمعة التى تضئ للناس وهى تحترق فى نفسها وبالمسن الذى يستحد غيره وهو لا يقطع ، وصاحب هذا الحال داخل فى عموم قوله تعالى - يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون - وقوله تعالى - أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون - وقوله عليه الصلاة والسلام « يؤتى بالعالم الى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه ، وأنهى عن الشر وآتيه » وقال عليه الصلاة والسلام « تعلموا ما شئتم فو الله لا يقبل ذلك منكم حتى تعملوا به » ويلى هذا العالم من يعلم ثم انه لا يعمل بعلمه ولا يعلمه الناس اما كسلا واستثقالا واما شغلا واستغراقا بأمور الدنيا وحظوظها ، وقد مثلوا هذا العالم بالصخرة التى تقع فى فم النهر فلا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخرج فيشرب منه الناس وينتفعون به ، وجميع ما ورد فى الوعيد فى حق من لا يعمل بعلمه يتناول هذا العالم ثم يزيد عليه الوعيد الوارد فى حق من لا يعلم العلم لعباد الله ويكتمه مثل قوله تعالى - ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب الآية - وأسوأ حالا من هذا العالم هو العالم الذى لا يعمل بعلمه ولا يعلمه الناس ثم يدعوه مع ذلك الى الشر والضلالة ويروج الشر فى معرض الخير وتصوير الباطل بصورة الحق إما على نية المداهنة والمحاباة للظالمين والجاهلين لينال بذلك الجاه والمنزلة عندهم ويصيب من أموالهم وما فى أيديهم من متاع الدنيا وإما عنادا لله ورسوله وبغيا فى الارض وفسادا أولئك من خلفاء الشياطين ونواب الدجال الكذاب اللعين ، وهم أسوأ العلماء حالا وأخسرهم مما لا وعليهم أوزارهم وأوزار من أضلوه من عباد الله ودعوه الى الضلالة كما قال عليه الصلاة والسلام « من دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه من غير أن ينقص من آثامهم شئ » وقد يموت هذا العالم السوء وتبقى بعده ذنوبه وزلاته وضلالته فيعذب بها فى قبره وتلحقه آثامها بعد موته لبقاء العاملين بها المتبعين له عليها للأزمنة المتطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه كما قال بعض العلماء المحققين : ومثل العالم السوء لو انتبه من غفلته وأراد التوبة الى ربه من زلته فربما تتعسر وتتعذر التوبة عليه كما بلغنا أن بعض علماء بنى اسرائيل الذين كانوا يدعون الى الضلال ندم على صنيعه وقصد التوبة من ضلالته فجاء الى نبى زمانه فأخبره ليشفع فيه الى ربه ليقبله فأوحى الله الى ذلك النبى أن قل : لو كانت ذنوبه فيما بينى وبينه لغفرتها له فكيف بعبادى الذين قد أضلهم وأدخلهم النار : أى باتباعه على ضلالته وبلغنا أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام : ياداود لا تسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن سبيلى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، وذكر أن النواويس شكت الى الله من نتن جيف الكفار فقيل لها ان بطون علماء السوء أشد مما أنتم فيه ، وقال بعض السلف الصالح رحمهم الله : ينظر أحدكم الى الشرطى فيستعيذ بالله من مثل حاله وعلماء السوء أشر منه حالا أو كما قال ، وفى كلام لأمير المؤمنين على رضى الله عنه يذكر فيه علماء السوء قال آخره أولئك الجبارون أعداء الرحمن ، وانما صاروا بهذه المثابة من الشر لأنهم عكسوا الأمر فانعكسوا وانتكسوا حيث كان أحدهم يمكنه أن يكون داعيا وهاديا الى سبيل الرحمن وصار ضالا مضلا يدعو ويهدى الى سبيل الشيطان ، وقد سمعت ما قال الله العزيز المبين فى شأن بلعام بن باعوراء حيث يقول سبحانه - واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين - الى قوله - فاقصص القصص لعلهم يتفكرون - فكذلك يكون حال العالم الطالب بعلمه

الدنيا المتبع الهوى المضل للناس بما يزين لهم من الضلالة والاغواء . ومن شأن علماء الدين أن يكونوا هم المفزع والمرجع لعموم المسلمين عند ماتشتبه عليهم الامور وتشكل عليهم الأشياء فاذا رجعوا اليهم وجدوا عندهم ازاحة الشبهات وايضاح الأمور والمشكلات بما آتاهم الله من الآيات البينات وأودع لديهم من العلم بالسنن الواضحات ، فقد صار الكثير من المتزيين بالعلم من أهل هذا الزمان بلاء وفتنة وحيرة وضلالة اذا رجعت اليهم العامة أضلوهم وفتنوهم وفتحوا لهم أبواب الحيل والمخادعات التي يتوصلون بها الى ابطال الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وقد أحدث مثل ذلك علماء بني اسرائيل فيما حكى الله عنهم من أخبارهم فضرب الله بقلوب بعضهم على بعض وجعلهم نكالا وموعظة لمن بعدهم ، وقد وردت الاحاديث بان أهل الضلالة من هذه الامة يتبعونهم على ضلالتهم حتى قال رسول الله ﷺ « لتتبعن سنن من قبلكم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم من ورائهم ، قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ، قال فمن » وفي رواية « حتى لو كان منهم من أتى أمه لكان منكم من يفعله » الحديث وقد كثرت أمثال هذه الحيل والمخادعات في بني اسرائيل ما وقع لأهل القرية الذين استحلوا الاصطياد يوم السبت بتلك الحيلة ، ومثل قصة صاحب العصا الذي جعل فيها الجوهرة التي كانت مودعة عنده فلم تغن عنهم تلك المخادعات من الله شيئا وحل بهم مقت الله وسخطه ، فاذا كان العالم يكون بحيث انه هو الذي يرخص للعامة ويوسع له فيما لا رخصة فيه من الله ولا يسعه فأي شيء يكون حاله عند الله وأي شيء تكون منزلته ؟ وليتوقع من الله عقابا وسخطا يحل به ، فالذي ينبغي للعالم ان كان من علماء الدين الذي ينفع الله بهم المسلمين اذا رجع العامة اليه وسألوه بلسان مقالهم ولسان حالهم أن يدلهم على مافيه نجاتهم وسعادتهم في الدار الآخرة ويشرح لهم سبيل الورع ويفتح لهم أبواب الاحتياط في الدين ويحذرهم من أكل أموال الناس بالباطل والوقوع فيما حرم الله عليهم مع مجانبة الشبهات والأشياء المشكلات ، فانه بذلك ومثله يعد من علماء الدين وهداة المسلمين ، فأما أنه يوسع لهم ماضيقه الله عليهم ويصور لهم الباطل بصورة الحق ويحسن لهم الوقوع في الشبهات فليس ذلك من شأن العلماء بدين الله الذين يخشون الله ويتقونه وينصحون لانفسهم ولاخوانهم من المسلمين ، بل هو من شأن الشياطين والأئمة المضلين الذين يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون - وفي حديث حذيفة رضي الله عنه لما سأل رسول الله ﷺ فقال انا كنا في جاهلية فأتانا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ، فذكر الحديث بطوله الى أن قال عليه الصلاة والسلام « نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها » وفي بعض الأخبار « أن الناس ينزل بهم نازلة فيفزعون الى علمائهم فيجدونهم قد مسخوا قردة وخنازير » قال بعض المحققين المراد مسخ صورهم الباطنة ، وقد مسخت من زمان انتهى ، فمن يكون علمه بلاء عليه وعلى المسلمين وفتنة وضلالة فليس بعالم بل هو شيطان مارد وفاجر معاند لله ورسوله . قال الله تعالى - ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز - :

[واعلم] ان العامة محتاجون الى من يصلحهم ويرشدهم ويعظهم ويخوفهم بالله ويذكرهم بوعده ووعيده ، لان في الغالب عليهم الغفلة عن الله وعن الدار الآخرة والميل الى الدنيا ومتاعها ولذاتها وحظوظها العاجلة ، فاذا صار الذي يسمى عالما بألسنة الجاهلين يفتيهم ويضلهم ويوسع لهم الامور التي ضيقها الله عليهم من أمور الدين بحيث يلقنهم الدعاوى الباطلة والشهادات الزور وحيل الربا والنذور التي يعرف هو واياهم انهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى ولا ارادة ثوابه بوجه ويقول لمن جاءه ليكتب له وصية غير جائزة لوارث مثلا ان الوصية للوارث غير جائزة اجعلها بصيغة نذر أو اقرار ولمن يريد أن يعطي ماله بعض ورثته ويحرم الباقين منهم اجعله بطريق الاقرار والنذر حتى يصح ذلك في ظاهر الحكم واشباه ذلك من الامور المستبشعة والحيل

والخداعات الفاسدة ، فهذا العالم المترسم الموصوف بهذه الاحوال من أئمة الضلال والمحال ودعاة النار والبوار الذين جعلهم الله عارا وخزيا وبلاء وفتنة على أنفسهم وعلى من أخذ بزخارفهم واتبعهم على ضلالتهم ؟ - وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار - وكان العلماء المتقون إذا تكلموا مع عامة المسلمين واستفتوهم العامة فى شئ لم يحدثوهم بالرخص ولم يخبروهم باختلاف العلماء فيما يوهم الترخص ، وكانوا يخبرونهم بما يقتضى الاحتياط فى الدين والبعد عن الامور المشتبهة . ويقولون العامة نضيق عليهم دعهم يوسعون لأنفسهم لما هو الغالب عليهم من الغفلة والانقياد للشهوات والحظوظ الدنياوية ، فان وسعت عليهم وحدثتهم بالرخص خرجوا منها الى المحرمات لان أكثرهم فى مثل أحوال البهائم ، وفى الحديث « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » وقد بلغنا أن بعض ملوك المغرب جامع فى نهار شهر رمضان جمع العلماء الذين عنده ليسألهم عن حكم ذلك ، فلما اجتمعوا عنده وسألهم ، قال له واحد منهم كان المقدم فيهم بالعلم والفضل : عليك أن تصوم شهرين متتابعين ، فلما خرجوا من عنده قالوا لذلك العالم كيف تفتيه بان عليه صيام شهرين متتابعين وأنت تعلم أن مذهب الامام مالك رحمه الله تعالى التخيير فى كفارة الجماع فى نهار رمضان بين اعتاق الرقبة والصوم والاطعام وكانوا مالكية ، فقال لهم لو اخبرته بالاعتاق والاطعام لهان عليه ذلك وجامع فى كل يوم من رمضان والصوم يشتد عليه مشقته فيكون أقرب الى زجره وردعه وكان الامام أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى لا يقرأ كتاب الايلاء والظهار واللعان فى حضرة العامة وكان يامر القارئ إذا انتهى اليها بحضرتهم أن يتجاوزها ويقرأها خاليا لئلا يسمعوها فيسارعوا فيها فيقعون فى الحرج والتعنت ، هكذا كانت سيرة علماء الدين فى كمال شفقتهم وحسن سياستهم لعامة المسلمين .

قال ابن عباس رضى الله عنهما لبعض من أراد أن يسأله عن شئ استحي من ذكره : إنما العالم بمنزلة الوالد فما تفضى به الى والدك فأفض به الى ، وقد سبقه الى ذلك امام المتقين وسيد الناصحين صلوات الله وسلامه عليه حيث قال « انما أنا لكم بمنزلة الوالد » وقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذا جاءه من يسأله أرشده الى مافيه تقوى الله والنجاة من عذابه والتعظيم لحرماته والاحتياط فى دينه ومن ذلك حديث الأنصارى الذى أراد أن يعطى بعض أولاده غلاما . فلما سأله عليه السلام هل أعطيت سائر أولادك مثله ؟ فقال لا . فأمره برد الغلام ، وفى رواية « أنه سأل منه عليه السلام أن يشهد على ذلك . فقال : هذا جور وأنا لا أشهد على الجور » الحديث « ومن ذلك حين رأى صلى الله عليه وسلم التمر الذى جيء به من خيبر فرآه جيدا فسأل أكل تمر خيبر هكذا » فقالوا لا ولكنا نأخذ الصاع من هذا بصاعين من الردئ ، فقال عليه الصلاة والسلام « هذا من الربا ولكن بيعوا الصاعين من الردئ بدرهم واشتروا بالدرهم صاعا من الجيد » أو كما قال عليه الصلاة والسلام فأرشدهم الى ما يصح ويحل ونهاهم عما لا يصح ولا يحل « ولما سأله عقبة بن الحرث رضى الله عنه عن امرأة تزوج بها جاءته امرأة سوداء فأخبرته انها قد أرضعته وأرضعت المرأة التى تزوجها ، وقال يارسول الله انها هي سوداء فقال له عليه الصلاة والسلام دعها : أى المرأة التى تزوجها فلا خير لك فيها » الحديث ، وهكذا كان شأن علماء الدين الناصحين لله ورسوله وللمسلمين انما يدلونهم على ما فيه النجاة والفوز من البعد عن الشبهات والامور المشكلات ومايوهم التساهل فى الدين والترخص المذموم الذى لا يأخذ به إلا كل متهاون متساهل فى دينه متعرض للوقوع فيما يسخط ربه ويضره فى آخرته ، ولم يزل علماء الآخرة من أهل اليقين والخشية والزهد فى الدنيا يحذرون الناس من علماء الشر المفتونين الراغبين فى الدنيا ويبينون لهم أوصافهم وأحوالهم ويصفونهم لهم بأوصافهم المعرفة المميزة بينهم وبين علماء الآخرة الدعاة الى الله والى دينه ، وقد ذكر الامام حجة الاسلام رحمه الله فى كتاب العلم من الاحياء ما فيه الغنية والكفاية ، وقد سبق الى نحو من ذلك الامام

الحارث بن اسد المحاسبي رحمه الله في كتبه والامام أبو طالب المكي رحمه الله في كتاب قوت القلوب ، وغير هؤلاء كثير من السلف والخلف الصالح من الذين كانوا يحذرون علماء السوء ويخوفونهم بالله ويحذرون الناس منهم ومن فتنتهم ويعرفون للناس بينهم وبين علماء الآخرة بالعلامات والدلالات ، وقد ذكر الامام الغزالي رحمه الله في كتاب العلم بابا ذكر فيه علامات علماء الآخرة وعد من ذلك اثني عشر علامة فلينظر فيه من أراده ورغب في الوقوف عليه رحمة الله عليه ورضوانه وعلى جميع علماء الدين الناصحين للمسلمين .

قال رحمه الله بعد ما عدّ علامات علماء الآخرة المميزة بينهم وبين علماء الدنيا : فهذه اثنا عشر علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحد منها جملا من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين . إما متصف بهذه الصفات ، أو معترف بالتقصير مع الاقرار به ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تلفق آلة الدنيا بالدين وسيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين في الدين فتلحق بجهلك وانكارك بزمرة الهالكين الآيسين ، نعوذ بالله من خدع الشياطين ، فبها هلك الجمهور فنسأل الله أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور . انتهى .

واعلم أن للعلم وأهله والمعلمين له والمتعلمين الذين يريدون بذلك وجه الله تعالى والدار الآخرة فضلا عظيما وشأنا جسيما وثوابا كريما ، وقد ورد في ذلك من الآيات والأخبار والآثار ما يطول ذكره ويتعذر حصره قال تعالى - شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم - وقال تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير - وقال تعالى - قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » وقال عليه الصلاة والسلام « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » وقال عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال عليه الصلاة والسلام « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل ، وأوحى الله الى ابراهيم عليه السلام : يا ابراهيم اني عليم أحب كل عليم ، وقال علي كرم الله وجهه لكميل بن زياد : يا كميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق ، وقال لقمان : الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك ، وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء ، وقال أبو الاسود رحمه الله : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه أن تهلك رواته ، فوالذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وان أحدا لم يولد عالما ، وانما العلم بالتعلم ، وقد ذكرنا هذه النبذة اليسيرة من فضل العلم وأهله تبركا وتنبيها ، وفضل العلم مجموع مخصوص بفضل الله ورحمته للعلماء الذين تعلموا وعملوا وعلموا العلم ابتغاء وجه الله تعالى ومرضاته والدار الآخرة . فأما علماء السوء المفتونون فليس لهم فضل بل قد ورد في ذمهم وتوبيخهم ما يطول ويهول كما ذكرنا شيئا من ذلك فيما تقدم ، نسأل الله العافية من كل شر وفتنة وبلاء ومحنة في الدنيا والآخرة لنا ولأحبابنا وللمسلمين ، ونسأل الله علما نافعا وعملا متقبلا ونعوذ بالله

من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ، وأن يختم لنا بالحسنى والاحسان فى لطف وعافية انه أرحم الراحمين .

الصنف الثانى فى العباد والزهاد وأهل الجد والاجتهاد المتبتلون الى الله والمتفرغون لطاعته وعبادته وخدمته وحسن معاملته والقول فى نصيحتهم وتذكيرهم وتنبيههم وتحذيرهم

اعلم أن هذا الصنف من الناس ، وهم صفوة الله من عباده وموضع نظره من خلقه ومعادن أنواره خزائن أسراره وكثير مايوجد منهم ويعرف فيهم أولياء الله وأصفياؤه من الأوتاد والابدال والنقباء والنجباء من الرجال وفيهم ومنهم تتعرف وتوخذ حقائق الاخلاص والصدق والتوكل والزهد وأشباهها من مقامات اليقين وأسرار معاملات الدين ، أولئك هم الصوفية الأصفياء الأبرياء الأتقياء أهل الحق والحقيقة العالمون السالكون الذائقون لأسرار الطريقة وأرباب الولاية والرعاية الذين يمن بركاتهم ومستجاب دعواتهم تستدفع البليات وتستكشف الأذيات ويرحم الحاضر والباد ويغاث العباد والبلاد ، نفعنا الله بهم وأعاد من سرهم وبركاتهم علينا وعلى أحبابنا والمسلمين ، ثم اعلم انه قد يقتدى بهؤلاء ويتأسى بأسوتهم ويقصد سلوك طرائقهم من شاء الله من المبتدئين والطالبين فيحتاجون الى التعريف والتنبيه والتعليم والتذكير ، فنحن نذكر من ذلك ما يسره الله كما انا قد اسلفنا فى شرح أحوال الصنف الاول الذين هم العلماء بالدين ما يسر الله ذكره فنسأل الله العظيم أن يبارك لنا ولهم فى ذلك ، وفى جميع ما أعطانا وأعطاهم من فضله واحسانه وأن يوفقنا وإياهم لشكر نعمه الموجب للمزيد من كرمه ، فانه الجواد الكريم الرءوف الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

اعلم رحمك الله ان من أراد سلوك طريق الله وعزم على التفرغ لعبادته والانقطاع اليه سبحانه وتعالى وعلى التجرد عن كل مايشغل عن التفرغ لهذا الشأن من أى شىء كان يتعين عليه ويتأكد جدا أن ينظر فان كان قد حصل من علوم الايمان وعلوم الاسلام ما لابد منه أخذ فى العبادة بالتفرغ عن كل مايشغله عنها وجد فى قطع العلائق وصرف العوائق وأقبل بظاهره وباطنه على الله وعلى الدار الآخرة ، وان كان لم يحصل ما لابد له منه من هذه العلوم وجب عليه أن يحصل القدر الذى يتعين عليه علمه فان ذلك فرض عليه مقدم على الأخذ فى العبادة وعلى سلوك طريق التأله والزهادة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وفى الخبر أو الاثر ومن عبد الله بجهل كان ما يضره أى من عبادته أكثر مما ينفعه ، فعلى الراغب فى سلوك طريق الله أن يتعلم من العلوم الايمانية والعلوم الاسلامية ما يصحح به معتقده فى معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته ، ومن الايمان بالرسل وباليوم الآخر ، ومن علوم الاسلام العلم بالطهارة والصلاة والصوم وبالزكاة والحج ، وبالجملة فلا يدخل فى شىء من العبادات ولا يتلبس بشىء من العادات كالأنكحة والمبايعات حتى يعلم حكم الله تعالى فيه والا وقع فى الحرج من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى من غير أن يشعر بذلك ويكفيه فى معرفة علوم الايمان أن يعرف ويعلم بعض عقائد الأئمة المجمع على علمهم وأمانتهم وصلاحهم مثل الامام حجة الاسلام وعقيدته التى أوردها فى أول كتاب قواعد العقائد من كتب احياء علوم الدين كفاية فى ذلك ونهاية ، وقد ذكرنا فى أوائل كتاب اتحاف السائل ، وفى خاتمة كتاب النصائح الدينية عقائد مختصرة جامعة فيها الكفاية للسالك الناسك ، وأما علوم الاسلام للمترجم عنها بعلوم الاحكام فيكفى السالك أن يعلم منها ما أورده حجة الاسلام رحمه الله فى بداية الهداية غير أنه لم يذكر فيها من علوم الزكاة وعلوم الحج ما تدعو اليه الحاجة ، وقد أحال من يريد ذلك على كتاب احياء علوم الدين ، ومنها ما ذكره الفقيه العلامة عبد الله بن عبد الرحمن بن الحاج أبى فضل رحمه الله فى كتاب المختصر اللطيف ما يكفى الناسك ، فان احتاج الى مزيد عليه فلينظر فى مختصره الكبير الذى شرحه

الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي رحمه الله، وان ساعدت الاقدار وامتدت الايام وضعنا كتابا يشتمل على ما يحتاجه أهل النسك والعبادة وعامة المسلمين من علوم الايمان وعلوم الاسلام وعلوم الاحسان، ونجعله كالشرح لحديث جبريل عليه السلام الذي سأل به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه العلوم. وأما التبحر والاتساع في العلوم فليس ذلك بواجب على الاعيان بل هو خاص بالمتفرغين للمتأهلين له من أئمة الدين واعلام الملة الذين أقامهم الحق وأهلهم لنفع عباده وارشادهم وبيان أحكام أحوال معاشهم ومعادهم، وقد يعمم الله لبعض الخواص من المؤمنين بين العلوم الباطنة والظاهرة ويؤهله لنفع الخاصة والعامة وعلم الشريعة وسلوك الطريق وشهود الحقيقة، وكان على هذا القدم وعلى مثل هذا الوصف جماعة من السلف الصالح مثل سيدنا الامام زين العابدين على بن الحسين بن على أمير المؤمنين وولده الامام أبي جعفر محمد الباقر وولده الامام جعفر الصادق بن محمد ومثل الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز الأموي ومثل أبي سعيد الحسن بن الحسين البصري وجماعة يكثر عددهم، ومن بعدهم مثل الشيخ الحارث بن أسد المحاسبي والشيخ الجنيد بن محمد ومن بعدهم مثل الشيخ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري صاحب الرسالة، ومثل الامام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي، ومثل الشيخ محي الدين عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني الجيلاني، ومثل الشيخ أبي حفص عمر بن محمد السهروردي صاحب العوارف وعمه الشيخ أبي النجيب السهروردي الى غير هؤلاء من الائمة الاعلام، ومن السادات آل أبي علوي الأشراف الحسينيين جماعة كثيرة كانوا على هذا الوصف، وعلى هذا القدم من الجمع بين العلم الظاهر والعلم الباطن والشريعة والطريقة والحقيقة مثل شيخ الشيوخ الفقيه المقدم محمد بن على الشريف الحسيني الترمي ومثل الشيخ المعظم السقاف عبد الرحمن بن محمد وولده الشيخ القدوة عمر المحضار وولد ولده الشيخ القطب عبد الله ابن الشيخ أبي بكر العيدروس وأخيه الشيخ الجامع على بن أبي بكر، ومن أهل البيت السادة الى أبي علوي جماعة يطول تعدادهم كانوا على ذلك الوصف يعرف ذلك من نظر في سيرهم وطالع في أخبارهم ومناقبهم، نفعنا الله بهم وبسائر الصالحين وأفاض علينا من بركاتهم وحفظنا بأسرارهم من الشر والأشرار والفتن والمفتونين انه جواد كريم قريب مجيب. ومن رجال هذه الطريقة من كان شأنه الاقتصار من العلم على ما لا بد منه والأخذ في العبادة والتبتل الى الله والانقطاع اليه والتفرغ عن كل ما يشغله عنه سبحانه وعن طاعته والانقباض عن الناس والفرار منهم مثل أويس القرني ومالك بن دينار وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام والربيع بن خيثم وثابت البناني وحبيب العجمي وابراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض ووهيب بن الورد وداود الطائي ومعروف الكرخي وبشر الحافي وسري السقطي وسهل التستري رحمهم الله، وكان شأن هؤلاء الانقباض عن الناس وقلة المخالطة وخروج الكثير منهم الى الجبال والشعاب والسياحة في الفيافي والقفار رياضة للنفس وقطعا لعوائدها ومألوفاتها وتصحيحا لمقامات اليقين من التوكل على الله والاخلاص له والزهد في الدنيا وفي المال والجاه والمنزلة في قلوب الناس، وكان الأكثر من رجال الله على مثل هذا الوصف وهذا السبيل، وكان من ظهر للناس منهم أو جالسهم إنما يجلس مع الخاصة ويخوض معهم في العلوم الخاصة، وكان أحدهم اذا كثر عليه الناس يترك الجلوس ويقوم عنهم، وربما أمر بعضهم بغلق الباب عليه وعلى أصحابه من الخاصة لدقة العلوم التي يتذاكرون بها ويتفاوضون فيها بينهم وكانوا يفرون من الشهرة ومن نصب أنفسهم للفتيا وتقلد الولايات والأحكام والجلوس لعامة الناس شغلا منهم بأنفسهم وحرصا على سلامة دينهم وصلاح قلوبهم، ولما لقي هرم بن حيان أويسا القرني رحمهم الله بشاطئ الفرات بعد أن طلبه مدة قال له: حدثني بحديث أحفظه عنك عن رسول الله ﷺ أحفظه، فقال له أويس اني لم ألق رسول الله بأبي وأمي رسول الله ولكني لقيت رجالا رأوه، وقد بلغني من حديثه وأكره أن أفتح على نفسي هذا الباب لي شغل شاغل في نفسي

لا أحبّ أن أكونَ محدِّثًا ولا مفتيًا ولا قاضيًا ، أو كما قال رحمه الله . والقصة فى ذلك مشهورة وكان يقال
مثلُ بشرِ بن الحارث كمثل العين العذبة يردها الواحد بعد الواحد ، ومثلُ أحمد بن حنبل مثل دجلة يردها
البر والفاجر ، وقال بشر رحمه الله : فضلني أحمد بن حنبل رحمه الله بثلاثٍ ذكر منها أنه نُصِبَ إماما للعامة ،
وكان أحمد يقول فى بشرٍ : انه قعدَ على مثل حد السيف : أى من الورع والاحتياطِ للدين والتقلل من الدنيا ،
فانظر رحمك الله الى هؤلاءِ الأئمة كل منهم يُفضل صاحبه على نفسه ويشهد له بالسبق والتقدم ، وقال بشر :
أشتهي أن أحدِّثَ ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت ، وروى أنه دفن بضعة عشر ما بين قوصرة وقمطر
من الكتب ، وروى الامام محمد بن يوسف الاصفهاني وهو يدفن كتبه ويقول : كنت محدِّثا فكان ماذا
كنتُ مفتيا فكان ماذا كنتُ قاضيا فكانَ ماذا أو كما قال . ومثلَ ذلك كان شأن رجال أقبلوا على الله
وعلى الدار الآخرة واشتغلوا بخاصة أنفسهم وتجردوا لعبادة ربهم وفيهم يصدق قول من قال : كان العلماء
اذا علموا عملوا فاذا عملوا شغلوا فاذا شغلوا فقدوا فاذا فقدوا طلبوا فاذا طلبوا هربوا : أى فرارا بدينهم واحترازا
عمن يشغلهم عن عبادة ربهم ، وكان العلماء فى تلك الأزمنة متكاثرين ومتوافرين ، وكان القيام بفرض
الكفاية من تعليم من ليس يعلم حاصلا بالبعض منهم وقائما به ، فتفرغ أمثال هؤلاء الذين ذكرناهم للعمل
والعبادة والاعتزالِ عن الناسِ والاقبال بكنه الهمة على الدارِ الآخرة وترك ما يشغلهم عن ربهم وعن طاعته
والتجرد لعبادته كائنا ذلك ما كان ، ثم ان من أهم مهمات على سالكى هذه الطريق بعد أخذ ما لا بد لهم
من العلم التحرى البالغ والحرص التام على تناول الحلال ثم على الاقتصار منه على قدره كضرورة الحاجة
من المطعم والملبس ونحو ذلك من الحاجات المعاشية ، وأن لا يتساهلوا فى ذلك ولا يأخذوا فيه بالرخصة وما
يجوز مما هو شأن العامة ، بل يجتهدوا فى طلب الحلالِ المطلق الصافى عن جميع الشوائب فان مظانهم ذلك
وتيسروهم بين ظهرانى الناس وإلا خرجوا فى طلبه الى حيث يوجد وتيسره من المواضع التى يوجد ذلك
فيها من الجبال والبرارى التى يكثر فيها وجود الأشياءِ المباحة المقتاتة ولو من الحشيش ، وقد أخذ بذلك
واعتمده كثير من رجالِ الله الذين لهم عناية بصفاء قلوبهم وصلاحها واستعدادها لمعرفةِ الله والمكاشفة
بأسراره وغيوبه فى ملكه وملكوته رضي الله عنهم أجمعين ، فبلغنا عن بعضهم أنه كان يقتات الحشيش
حتى اخضر جسده ، وكان بعضهم اذا لم يجد الحلال المطلق يستف من الرمل الأيام الكثيرة نقل ذلك عن
سفيان الثورى وغيره رحمه الله تعالى ، وأما ما يقوله العلماء رحمة الله عليهم أن الحلال هو الذى لا يعلم الانسان
سببا ظاهرا فى تحريمه ، وان من أكثر ماله حلال تجوز معاملته فذلك صحيح وهو الذى يسع عامة
المسلمين وييسر لهم وما يجعل الله عليكم فى الدين من حرج . ولكن الجائز والمباح موضع الرخصة والسعة
غير الورع ، والاحتياطِ والاخذ بعزائم الدين ، ولكل مقام رجال ولكل حالٍ مقال ، وقد بلغ رجال من هذا
الصنف فى الاقتصار من الحلال الصافى على ما لا بد منه فى حفظ القوة التى لا بد منها فى اقامة أمر الله وفرائض
دينه ، وانتهى بعضهم الى الاقتصار على حد الضرورة من ذلك ، ولهم فى ذلك سير وأقوال معروفة عن سهل
ابن عبد الله التسترى وغيره من أئمتهم ، وقد شرح ذلك الامام حجة الاسلام رحمه الله فى كتاب كسر
الشهوتين من الاحياء وفى غيره من كتبه التى ألفها فى علومهم وشرح طرائقهم ، وقد كان أبو سليمان
الدارانى رحمه الله يقول : أحلى ما تكون العبادة اذا التصق بطنى بظهرى ، وقال أيضا : لأن أترك لقمة من
عشاى أحب الي من قيام ليلة ، وأقوالهم فى ذلك كثيرة مشهورة ، وقد رد بعضهم أصول هذه الطريقة الى
أربعة : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام واعتزال الأنام . قال : وبها صار الابدال ابدالا ، وهى أركان
بيت الولاية ، وفى ذلك يقول قائلهم

بيتُ الولايةِ قُسِّمتْ أركانه ساداتنا فيه من الأبدال

مابين صمت واعتزال دائم   والجوع والسهر النزيه العالى

وقد نظمناها فى بيت من آخر التائية وهو بيت :

وكن فى طعام والمنام وخلطة   ونطق على حد اقتصار وقلة

وفى الرائية التى مطلعها :

يازائرى حين لاواش من البشر   وبالرياضة من صمت ومخمصة   مع التخلى عن الاضداد والسهر

ومن آخر العينية أيضا :

والنفس رضها باعتزال دائم   والصمت مع سهر الدجا وتجوع

وقد قال حاتم الأصم رحمه الله تعالى : من أراد طريقنا هذا فليوطن نفسه على أربعة ألوان من الموت موت أبيض وهو الجوع ، وموت أحمر وهو مجاهدة النفس ، وموت أخضر وهو طرح الرقاع بعضها الى بعض ، وموت أسود وهو احتمال الأذى من الخلق ، أو كما قال ، وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لايصلح طريقنا هذا إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل : أى من تذللهم لله وتواضعهم لعباده وخضوعهم وخشوعهم لعظمته ، واعلم أن الصادقين من أهل هذا الطريق قد قلوا وعزوا حتى صاروا أعز من الكبريت الأحمر حتى قال بعض المحققين بفقدهم وخلو الأرض منهم ، وفى كلامه نظر ، وقد يعبر عما قل وعز وجوده بالمفقود ، والأرض لاتخلو عن قائم لله بحجته . وفى الحديث « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » . وفى الحديث الآخر « ليجدن ابن مريم من أمتى رجالا هم مثل حواريه وخيرا منهم » أو كما قال عليه الصلاة والسلام : ولكنهم يقلون ويستترون عند فساد الزمان وعموم الفتن وغلبة الغفلة والاعراض عن الله ، فمنهم من يعتزل الناس مع الاقامة بين أظهرهم ، ومنهم من يستتر عنهم بحرفة ونحوها ، ومنهم من يخرج الى البرارى والقفار فرارا الى الله بدينه واحترازا من الفتن والمفتونين قال بعض العارفين : إنما خرج أهل الحق من بين أظهر الناس الى القفار والبرارى لأنهم لايطيقون النظر الى علماء السوء الذين هم علماء عند أنفسهم وجهال عند أهل الله تعالى من رجال الحق . انتهى ماذكره بمعنى ، فأهل هذه الطريقة أحرص الناس على الاستتار والخمول والفرار عن الناس خصوصا عند فساد الزمان ، والى أهل هذه الطائفة الاشارة بمثل قوله عليه الصلاة والسلام « كم من أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه به لو أقسم على الله لأبره » منهم البراء بن مالك ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » يعنى بالغنى : غنى النفس القنوع « قال رجل يارسول الله : أى الناس أفضل ؟ . قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . قال ، ثم من ؟ قال رجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره » وقال عليه الصلاة والسلام « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وعن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء لله فقد بارز الله بالمحاربة . إن الله يحب من عباده الابرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وقال عليه الصلاة والسلام « أغبط الناس عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة وكان رزقه كفافا وصبر عليه حتى لقى الله وأحسن عبادة ربه ، وكان غامضا فى الناس عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه » وفى مثله انشدوا :

أخص الناس بالايمان عبد   خفيف الحاذ مسكنه القفار
له بالليل حظ من صلاة   ومن صوم اذا طلع النهار
وفيه عفة وبه خمول   اليه بالاصابع لايشار

وقل الباكيات عليه ظلما ، فتى نحيا وليس له يسار

قال الشيخ الامام عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني رحمه الله تعالى في كتابه روض الرياحين في الحكاية الخامسة والأربعين بعد المائة منه : روى أن أويسا القرني رضى الله عنه كان يقتات من المزابل ويكتسى منها فنبحه كلب على مزبلة ، فقال له أويس كل مما يليك وأنا آكل مما يليني ولا تنبحني . فان جزت الصراط فأنا خير منك والا فأنت خير مني . وكان أهله يقولون هو مجنون وأقاربه به يستهزئون والصغار به يتولعون وبالحجارة يرمون ، وفيه أقول :

سقى الله قوما من شراب وداده ، فهاموا به مابين باد وحاضر
تظنهم الجهال جنوا وما بهم ، جنون سوى حب على القوم ظاهر
سقوا بكؤوس الحب راحات الهوى ، فراحوا سكارى بالحبيب المسامر
يناجونه في ظلمة الليل عند ما ، به قد خلوا منهم أويس بن عامر

وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال : رسول الله ﷺ « ان الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤوسهم المغبرة وجوههم الخمصة بطونهم الذين اذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم واذا خطبوا المتنعمات لم ينكحوا وان غابوا لم يفقدوا وان طلعوا لم يفرح بطلعتهم وان مرضوا لم يعادوا وان ماتوا لم يشهدوا ، قالوا يارسول الله كيف لنا برجل منهم ؟ قال ذاك أويس القرني قالوا وما أويس القرني ؟ قال أشهل ذو صهوبة بعيد مابين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الأدمة ضارب بذقنه الى صدره رام ببصره الى موضع سجوده واضع يمينه على شماله يبكى على نفسه ذو طمرين لا يؤبه له متزر بازار صوف ورداء صوف مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء لو أقسم على الله لأبر قسمه ، ألا وان تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، ألا وانه اذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة وقيل لاويس قف فاشفع فيشفعه الله في مثل ربيعة ومضر ، يا عمر يا علي اذا أنتما لقيتماه فاطلبا منه أن يستغفر لكما يغفر الله لكما » قال فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه ، فلما كان في آخر السنة التى توفي فيها عمر قام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته يا أهل اليمن أفيكم ، أويس فقام شيخ كبير طويل اللحية ، فقال انا لا ندري ما أويس ولكن ابن أخ لي يقال له أويس وهو أخمل ذكرا ، وأقل مالا وأهون أمرا ، من أن نرفعه اليك وانه ليرعى ابلنا حقير بين أظهرنا فعمى عليه عمر كأنه لا يريده ، وقال اين ابن أخيك هذا أبحرمنا هو ؟ قال نعم ، قال وأين يصاب ؟ قال بأراك عرفات ، قال فركب عمر وعلي رضى الله عنهما ، وأسرعا اليه الى عرفات فاذا هو قائم يصلى الى شجرة والابل حوله ترعى فشدا حماريهما ، ثم أقبلا عليه ، وقالا السلام عليك ورحمة الله وبركاته فخفف أويس من الصلاة ، ثم رد عليهما السلام فقالا من الرجل ، فقال راعى ابل وأجير قوم فقالا لسنا نسألك عن الرعاية والاجارة ، ما اسمك قال عبد الله ، قالا قد علمنا أن أهل السموات والأرض كلهم عبيد الله فما اسمك الذى سمتك به أمك ، قال ياهذان ماتريدان بي قالا وصف لنا النبى صلى الله عليه وسلم أويسا القرني فقد عرفنا الشهوبة والشهولة ، وأخبرنا أن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، فاوضحها لنا فان كانت بك فأنت هو فأوضح لهما منكبه ، فاذا اللمعة فابتدرا يقبلانه ، وقالا نشهد انك أويس القرني فاستغفر لنا يغفر الله لك ، فقال ما أخص باستغفاري نفسى ولا أحدا من ولد آدم ، ولكنه في البر والبحر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، ياهذان قد شهر الله لكما حالي وعرفكما أمري فمن أنتما ؟ قال علي أما هذا فعمر أمير المؤمنين ، وأما أنا فعلي بن أبي طالب فاستوى أويس قائما ، وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وأنت يا ابن أبي طالب جزاكما الله عن هذه الأمة خيرا قالا وأنت جزاك الله عن نفسك خيرا فقال له عمر مكانك حتى أدخل مكة ، فآتيك بنفقة من عطائي ، وفضل كسوة من ثيابي ، هذا المكان

بُعد بيني وبينك فقال لا ميعاد بيني وبينك يا أمير المؤمنين ولا أراك بعد اليوم تعرفني ما أصنع بالتفقة، ما أصنع بالكسوة؟ أما ترى عليّ ازارًا من صوف ومتى تراني أبليهما أما تراني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم متى تراني آكلها؟ يا أمير المؤمنين إن بين يديّ ويديك عقبة كؤودا لا يجاوزها الا كل ضامر مخف مهزول فأخف رحمك الله، فلما سمع عمر ذلك ضرب بدرته الأرض، ثم نادى بأعلى صوته ألا ليت عمر لم تلده أمه ألا ليتها كانت عقيما لم تعالج حملها ألا من يأخذها بما فيها ولها، يعني الخلافة، ثم قال يا أمير المؤمنين خذ أنت ههنا حتى آخذ أنا ههنا فولى عمر ناحية مكة وساق أويس ابله فوافى القوم فأعطاهم اياها وخلى الرعاية، وأقبل على العبادة حتى لحق بالله تعالى، وفي صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يأتي عليكم أويس بن عامر مع امداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن. كان به برص فبرئ منه الا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فان استطعت أن يستغفر لك فافعل» وساق الحديث الى ان ذكر اجتماع عمر به وقوله فاستغفر لي فاستغفر له فقال له أين تريد؟ قال الكوفة قال ألا أكتب لك الى عاملها قال أكون في غبراء الناس أحب الي، وهذا بعض الحديث، وفي رواية مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان خير التابعين رجل يقال له أويس وكان له والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم» قوله أويس غبراء الناس هو بفتح الغين المعجمة واسكان الباء الموحدة وبالمد: وهم فقراؤهم وصعاليكهم، ومن لا يعرف عينه من أخلاطهم، وروى عن علقمة بن يزيد رضي الله عنه قال: انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين، منهم أويس القرني ظن أهله أنه مجنون فبنوا له بيتا على باب دارهم، وكانت تأتي عليه السنون لا يرون له وجها، وكان طعامه مما يلتقطه من النوى فاذا أمسى باعه لافطاره، فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في الموسم: ايها الناس قوموا فقاموا فقال اجلسوا إلا من كان من اليمن جلسوا، فقال اجلسوا الا من كان من أهل مراد جلسوا، فقال اجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا إلا رجلا وكان عم أويس، فقال له عمر: أقرني أنت؟ قال نعم. قال أتعرف أويسا؟ قال أو تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما فينا أحمق ولا أجن ولا أجوع منه، فبكى عمر، ثم قال: بك لا به، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل الجنة بشفاعته مثل ربيعة ومضر»، وروى عن عمار بن يوسف الضبي قال: قال رجل لأويس القرني كيف أصبحت؟ قال أصبحت أحمد الله وأمسيت أحمد الله وماتسأل عن حال رجل اذا أصبح ظن أنه لا يمسي واذا أمسى ظن أنه لا يصبح ان الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحا وان حق الله تعالى في مال المسلم لم يدع له في ماله فضة ولا ذهبا، وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع لمؤمن صديقا، كنا نأمرهم بالمعروف ويشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعوانا من الفاسقين حتى والله لقد رموني بالعظائم وايم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقه ثم أخذ الطريق يعني بمشي وخلاني، وروى عن هرم بن حيان رضي الله عنه قال: بلغني حديث أويس فقدمت الكوفة فلم يكن لي هم الا طلبه حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فاذا رجل نحيل شديد الأدمة أشعث محلوق الرأس مهيب المنظر فسلمت عليه فرد علي ونظر لي ومددت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني. قلت: وفي انقباض أويس رضي الله عنه وما كان عليه فيه من رثاث الحال والتوحش والانعزال وما نسب اليه الجهال من الجنون والاختلال، وما كان فيه من التقشف والابتذال وغير ذلك من سائر الأحوال أظهر دليل لمن نحا ذلك النحو من الفقراء الصادقين ولا مبالاة بانكار من ينكر عليهم بزعم أن ذلك خلاف السنة ولم يدر أن السنة العظمى هي ترك الدنيا والاعراض عن الورى والاقبال على المولى سبحانه وتعالى، قال هرم فقلت يرحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت وخنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه لما رأيت من حاله حتى بكيت وبكى قال وأنت

حياك الله ياهرم بن حيان فكيف أنت يا أخي من ذلك علي ؟ قلت لمه قال لا إله إلا الله سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . قلت : ومن أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ولا رأيتني قال أنبأني العليم الخبير وعرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك ان المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل . قلت : حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله ولكني قد رأيت رجالا رأوه و بلغني من حديثه ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثا أو قاضيا أو مفتيا في نفسي شغل شاغل عن الناس ، فقلت أي أخي اقرأ علي آيات من كتاب الله تعالى أسمعها منك أوصني بوصية أحفظها عنك فاني أحبك في الله فأخذ بيدي ، فقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . قال ربي وأحق القول قول ربي وأصدق الحديث حديث ربي ثم قرأ - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق الى قوله العزيز الرحيم - فشهق شهقة وأنا أحسبه قد غشي عليه ثم قال يابن حيان : مات أبوك حيان ويوشك أن تموت أنت فإما الى الجنة وإما الى النار ، ومات أبوك آدم ، وماتت أمك حواء يابن حيان ، ومات نوح نبي الله ، ومات ابراهيم خليل الله ، ومات موسى كليم الله ، ونجي الله ، ومات داود خليفة الله ، ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، ومات أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات أخي وصديقي عمر بن الخطاب ، فقلت له يرحمك الله ان عمر لم يمت . قال بلى قد نعاه الي ربي ونعى الي نفسي وأنا وأنت في الموتى ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا بدعوات خفاف ، ثم قال : هذه وصيتي : اياك كتاب الله ونعي المرسلين ونعي صالحي المؤمنين فعليك بذكر الموت ولا يفارقن قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك اذا رجعت اليهم وانصح الامة جميعا واياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك ، وأنت لا تعلم فتدخل النار وادع لي ولنفسك ، ثم قال : اللهم ان هذا زعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك فعرفني وجهه في الجنة وأدخله علي دارك دار السلام واحفظه ما دام في الدنيا حيا وأرضه في الدنيا باليسير واجعله لما أعطيته من نعمتك من الشاكرين واجزه عني خيرا ، ثم قال السلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم يرحمك الله تطلبني فاني أكره الشهرة وأحب الوحدة لأني كثير الغم مادمت مع هؤلاء الناس حيا فلا تسأل عني ولا تطلبني ، واعلم انك مني على بال وإن لم أرك وترني واذكرني وادع لي فاني سأدعو لك وأذكرك ان شاء الله تعالى ، انطلق أنت ههنا حتى آخذ أنا ههنا ، فحرصت ان أمشي معه ساعة فأبى علي وفارقته يبكي وأبكي وجعلت أنظر اليه حتى دخل بعض السكك ثم سألت بعد ذلك وطلبته فلم أجد أحدا يخبرني عنه وما أتت علي جمعة الا وأنا أراه في منامي مرة أو مرتين ، وروى عن أصبغ رضي الله عنه قال كان أويس رضي الله عنه اذا أمسى يقول هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح ويقول هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح ، وكان اذا أمسى يتصدق بما في بيته من الطعام والثياب ثم يقول : اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به ، ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به ، وروى عن النضر ابن شميل رحمه الله تعالى ، قال : كان أويس يلتقط الكسر من المزابل فيغسلها فيتصدق ببعضها ويأكل بعضها ويقول : اللهم اني أبرأ اليك من كل كبد جائع ، وروى عن عبد الله بن سلمة رضي الله عنه غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأويس القرني معنا فلما رجعنا مرض علينا فحملناه فلم يستمسك فمات فنزلنا فاذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط فغسلناه وكفناه وصلينا عليه يعني ودفناه ومشينا قال بعضنا لبعض لو رجعنا فعلمنا قبره فرجعنا فاذا لا قبر ولا أثر ، وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى قال : نادى مناد يوم صفين أفي القوم أويس القرني ؟ فوجد في القتلى من أصحاب علي رضي الله عنه وعنهم أجمعين . والله أعلم . انتهى ما ذكره اليافعي رحمه الله تعالى مع حذف يسير ، ومن

ذى النون المصرى رحمه الله قال : بينما أنا ببعض سواحل الشام إذ أنا بامرأة مقبلة ، فقلت لها من أين ؟ فقالت من رجالٍ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقلت لها وإلى أين ؟ فقالت إلى أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فقلت لها صفيهم لى فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت … فما لهم همم تسمو الى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم … ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما ان تنازعهم دنيا ولا شرف … من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس لثوب فائق أنق … ولا لروح سرور حل فى بلد
فهم رهائن غدران وأودية … وفى الشواهق تلقاهم مع العدد

وقيل للجنيدى رحمه الله تعالى : ان أباسعيد الخراز كان كثير التواجد عند وفاته . فقال ليس بعجب أن تطير روحه اشتياقاً الى الله عز وجل ، وكان فى حالته تلك ينشد هذه الأبيات :

حنين قلوب العارفين الى الذكر … وتذكارهم عند المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم … فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذى السكر
همومهم جوالة بمعسكر … ومن أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسادهم فى الأرض قتلى بحبه … وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا الا بقرب حبيبهم … وماعرجوا عن مس بوس ولا ضر

ولما حضرت الجنيد رحمه الله الوفاة دخل عليه أبو محمد الجريرى رحمه الله ، فقال ألك حاجة ؟ قال نعم ، اذا مت فاغسلنى وكفنى وصل على فبكى الجريرى وبكى الناس معه ، ثم قال الجنيد وحاجة أخرى ، فقال ماهى ؟ فقال تتخذ لأصحابنا طعام الوليمة فاذا انصرفوا من الجنازة رجعوا الى ذلك حتى لا يقع لهم تشتت فبكى الجريرى ، ثم قال والله لئن فقدنا هاتين العينين لا اجتمع منا اثنانه أبدا ، قال أبو جعفر الفرغانى فكان كذلك الأمر بعد وفاة الجنيد ، وانما كان ذلك الاجتماع ببركة الشيخ رضى الله عنه ، قال الجريرى رضى الله عنه ، وكان فى جوار الجنيد رضى الله عنه مصاب فى خربة . فلما مات الجنيد رحمه الله ودفناه ورجعنا من جنازته ، فقدمنا ذلك المصاب فصعد موضعاً عاليا ، وقال لى يا أبا محمد أترانى أرجع الى تلك الخربة ، وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشأ يقول :

وا أسفى من فراق قوم … هم المصابيح والحصون
والمدن والمزن والرواسى … والخير والأمن والسكون
لم تتغير لنا الليالى … حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب … وكل ماء لنا عيون

ثم قال غاب عنا ذلك آخر العهد به رحمة الله عليهم ، وقال بعض العلماء رأيت الامام الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز وركوة ، فقلت له ياامام : أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر الىّ شزرا وقال لما بزغ بدر السعادة فى فلك الارادة وظهرت شمس أصول الوصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل … وعدت الى مصحوب أول منزل
ونادت بى الأشواق مهلا فهذه … منازل من تهوى رويدك فانزل

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه فى وصف رجال الله وخلفائه فى أرضه من عباده . أولئك هم الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ،

حيث عاشوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنظر الأعلى أولئك خلفاء الله تعالى في بلاده ودعاته الى دينه آهٍ آهٍ شوقا الى رؤيتهم انتهى . رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين ونفعنا والمسلمين بهم - أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون -

الصنف الثالث وهم الامراء والسلاطين والملوك والولاة لأمور المسلمين

القول في نصيحتهم وتذكيرهم وتنبيههم وتحذيرهم

اعلم أن الولاة لابد منهم ولا غنى للناس عنهم ، وللولاية أمر خطر والولاة في غاية الخطر ، فانهم ان قاموا بما يلزمهم من حق الله فيها وحق عباده تعبوا ونصبوا ، وإن ضيعوا ذلك هلكوا وعطبوا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » الحديث وقال عليه الصلاة والسلام « إنكم ستحرصون على الامارة وانها ستكون ندامة يوم القيامة » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به » وقال عليه الصلاة والسلام « ما من وال على الناس الا جيء به يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه فكه عدله أو أوبقه جوره » وقال عليه الصلاة والسلام « ليودن رجال لو أن ذوائبهم معلقة بالثريا ولم يلوا من أمر الناس شيئا » وقال عليه الصلاة والسلام « كم من متخوض في مال الله تعالى بغير حق له النار يوم القيامة » والوعيد الوارد في حق من ولى أمر الناس ثم لم يأخذ بالعدل والانصاف ويجتنب الظلم والجور شديد هائل ، ولذلك زهد فيها المتقون وفر منها المشمرون الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، ومن ابتلى منهم بذلك ولم يجد بدا مما هنالك كان على غاية من الخوف والاشفاق والتحفظ والاحتياط حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع ما كان عليه من كمال العدل ونهاية الاحتياط والاحتراز : من يأخذها بما فيها يعنى الامارة وددت أنى أنجو منها كفافا لا علىّ ولا لى ، وكان من شدة خوفه من الاضاعة لشىء من أمور المسلمين وحسن النظر فيها لا ينام الا اغفاء ، وهو قاعد ويقول ان نمت بالنهار ضيعت أمور المسلمين وان نمت بالليل ضيعت نفسى فكيف لى بالنوم بين هاتين ، وكان على رضى الله عنه اذا اجتمع في بيت مال المسلمين المال دعاهم ففرقه عليهم حتى لا يبقى فيه درهم ثم يأمر بكنسه ونضحه بالماء ويصلى فيه ويقول كما يشهد علىّ بجمع المال فيه يشهد لى بالصلاة . ولما ولى الامر عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سمع في داره بكاء كثيرا فسألوا عن ذلك فقيل إنه خير نساءه وجواريه بين أن لا يأتيهن أو الفراق ، وقال انى قد شغلت عنكن بما كلفته من القيام بأمر المسلمين فاخترن الاقامة معه ، فروى أنه لم يغتسل من جنابته مدة خلافته الا مرتين ، وكانت خلافته قريبا من سنتين ونصف وأراد مرة أن يغتسل فأتى بقمقمة من نحاس فيها ماء حار ، وكان برد شديد فسأل على أى شىء سخنتم هذا الماء فقيل له على مطبخ العامة فأبى أن يغتسل به وأراد يغتسل بماء بارد ، فقال له الخادم ان اغتسلت بهذا الماء البارد أصبح الناس ولا خليفة لهم يعنى تموت من شدة البرد ، فقال كيف أصنع ، وهذا الماء لا يحل لى ؟ فقال الخادم تقوم الحطب الذى يوقد به على مثل هذا الماء وتجعله في بيت مال المسلمين فقومه ورده في بيت المال ، وسير الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم في أمثال ذلك معروفة ومنتشرة يطول ذكرها ولكنه لم يتم ذلك ويثبت على وجهه كما يجب وينبغى الا للخلفاء الأربعة أبى بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان الشهيد وعلى المرتضى رضوان الله عليهم ، وكانت مدة خلافتهم هى المدة التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ، ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكا عضوضا » الحديث ، وقال « الخلافة بعدى ثلاثون سنة » ، فكانت هذه المدة هى مدة الخلفاء الأربعة مضافة اليها الأيام التى استخلف فيها الحسن بن على سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى نحو من ستة أشهر فتمت بها الثلاثون سنة من حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن صالح الحسن بن على رضى الله عنهما معاوية بن أبى

سفيان وبايع حين رأى ما رأى وأبصر الذي أبصر وتم فيه رضي الله عنه ما وعد به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه حيث قال عليه الصلاة والسلام « ان ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فلم يكن في مدة الاسلام من حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أيامنا هذه أيام ولا زمان فيه من العدل والاحسان ، وامانة الجور والعدوان وإقامة الحق والدين ، وجهاد الكافرين والمعتدين تشبه ولا تقارب مدة خلافة الخلفاء الراشدين المهتدين ، التي هي الثلاثون سنة المنصوصة في حديثه عليه أفضل الصلاة والسلام ، نعم قد سار بنحو من سيرتهم وقريبا منها جدا الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز الأموي رحمه الله ، ولكنها قصرت مدة خلافته ، ولقي من الناس ومن أهل بيته خصوصا مشقة وتعبا وشدة ومعاناة ومقاساة لأن الناس قد بعد بهم العهد عن زمان العدل و إقامة الحق ، وذلك من حين صالح الحسن بن علي وبايع لمعاوية رضي الله عنهم ، الى أن ولي عمر بن عبد العزيز ، وذلك نحو من ستين سنة فاندرست في هذه المدة أكثر سنن العدل والانصاف ، وظهرت شعائر الظلم والجور ، ومال الناس عن الصواب فتعسر ذلك وصعب على عمر بن عبد العزيز رحمه الله اعادتهم وارجاعهم الى مثل ما كان عليه الحال والعهد به من أيام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، حتى أنه بلغنا أن عمر بن عبد العزيز سأل من بعض عباد الله الصالحين : أن يدعو له بالموت لما اشتد عليه أمر الناس ، وثقل عليه القيام بالحق والعدل كما ينبغي ، فتخير الموت والانتقال الى الدار الآخرة التي هي خير وأبقى ، وليس ذلك منه عن جزع وتبرم ولكن خوفا واشفاقا من أن يستقبله الكارهون لأمر الله تعالى و إقامة العدل في عباده من المحبين للجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل بأمر لا يطاق ويئول الى فتنة واختلاف وفرقة ، فتخير ما عند الله على ذلك ، وقد سبقه الى ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حيث اختلف عليه أهل العراق ورأى منهم ما رأى من التباطؤ عن نصرة الحق ومجاهدة أهل البغي حتى روى أنه قال : اللهم أرحني منهم وأرحهم مني ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكا إليه ما لقي من الأمة من الاختلاف والمنازعة ، فقال له عليه الصلاة والسلام ادع الله عليهم ، فقال علي رضي الله عنه : اللهم أبدلني خيرا منهم وأبدلهم شرا مني ، ولما بلغت ملك الروم وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله شق عليه ذلك وقال فيه كلاما حسنا يثني به عليه ، وقال في آخره ، ولكن لا يبقى أهل الخير مع أهل الشر الا قليلا أو كما قال ، ثم انه لم يكن فيمن استخلف على المسلمين من الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، ومن بعد عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى من سار بالسيرة المرضية ، المحمودة المستقيمة لا من بني أمية ، ولا من بني العباس رضي الله عنه ، الا أن بني أمية كانوا أضيع لأمر الله ، وأشد تهاونا بحرماته ، وأقل تعظيما لشعائره من بني العباس وبينهم في ذلك تفاوت بعيد ، وتباين بين ، والى الله العظيم مآل الجميع وعليه حسابهم وهو عليم بما يفعلون وسيجزيهم بما كانوا يعملون ـ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ـ وحيث قد صار متعذرا أو متعسرا على من ولي شيئا من أمور المسلمين أن يسير فيهم بسيرة أهل العدل والاحسان المجانبين للظلم والعدوان فيتعين على كل من كان منهم حريصا على ابتغاء رضوان ربه وثوابه ومشفقا من سخطه وعقابه أن يكون في سيرته وفي جميع أفعاله وأقواله مقتديا ومتأسيا بأئمة الحق والهدى والعدل والانصاف ما وجد الى ذلك سبيلا باذلا فيه ما يمكنه ويستطيعه من غير ميل الى اتباع الهوى وايثار الدنيا على العقبى ، وأقل ذلك أن يكون في سيرته في جميع أموره الى ولاة العدل والاحسان أقرب وأشبه منه بولاة الجور والطغيان والظلم والعدوان ، وليكن معترفا بتقصيره وخائفا مشفقا على نفسه من تخليطه وتفريطه غير مغتر بربه ولا معجبا بنفسه ولا ظانا ولا متوهما أن له قدما مع ولاة العدل والحق والانصاف ، فلعله بذلك يتخلص وينجو ان كان النجاة والخلاص من أبعد شيء وأعزه في حق ولاة هذه الأزمان والاعصار ، على أنه

قد يغلب على كثير منهم الأعجاب بأنفسهم والاغترار بربهم ، وان كانت سيرتهم قبيحة ، وأعمالهم سيئة منكرة ، وذلك من شؤم تلبيس الشيطان عليهم وسوء خداعه وخفي سعيه في هلاكهم ، فانهم لو شهدوا تقصيرهم واعترفوا بتخليطهم وأنهم يقوموا بما يجب عليهم من حق ربهم وحق من استرعاهم من عباده وولاهم أمرهم من خلقه لرجعوا اليه وتابوا مما هم فيه واستغفروا ربهم لذنوبهم ، فأقل ما يجب عليهم الاعتراف بالاقتراف والتقصير والعزم على التوبة منه الى الله تعالى ، ومن أهم المهمات على من ولي شيئا من أمور المسلمين أن يتبصر في الدين ويتعلم ما لابد له من علمه من علوم الايمان وعلوم الاسلام ليعرف ما فرض الله عليه من طاعته ، وما حرم عليه من معصيته ، وما أوجب عليه سبحانه وتعالى من حق ربوبيته في نفسه وفي حق من ولاه أمرهم من عباده ، فان العالم يعرف ذلك ويهدي اليه والجاهل بصدد كل شر واضاعة ، والجهل قبيح بكل واحد ، ولكنه بروساء الناس . وأرباب المراتب منهم أشد وأقبح لأنهم لأنفسهم ولغيرهم ، ثم على الوالي أن يكون من أحرص الناس على اقامة فرائض الله تعالى واجتناب محارمه وتعظيم شعائر دينه وحرماته وعليه أن يأمر رعيته بذلك ويعنهم عليه فان الله تعالى ما ولاه أمر عباده الا ليقيم فيهم دينه وما أمر به من طاعته وحرماته من معصيته . وأما ما يدور على الولاة من أمور الدنيا والمعاش فهو تابع لذلك ولاحق به ، والأصل هو السعي في اقامة الدين وأمر الله في عباده ، وعلى الوالي أن يحرص على ازالة المنكرات ومحو آثارها ، ولا يمكن أحدا من التظاهر بها ، ومن أظهر من ذلك شيئا زجره أبلغ الزجر وعاقبه أشد العقوبة بفعل حسب ما يقتضيه الشرع الشريف أو السياسة السلطانية كل ذلك مع أهله وفي محله ، وعليه أن يقيم حدود الله على عباده اذا قامت الحجة وصحت بها البينة مثل حد الشرب للخمر والسرقة وغيرهما ولا يتساهل في ذلك ولا يقصر عنه ، وفي الحديث « حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » ، وفي اقامة حدود الله على المعتدين لها ولغيرهم من الزجر عن الباطل والمنكر ما لا مزيد عليه ، وبذلك تصلح أحوالهم وتحسن طرائقهم وفيه من اخافة الظالمين ورد المعتدين وردع الفاسقين ما تحمد عواقبه وتحسن آثاره ، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن : أي ان الذين يمنعهم القرآن عن محارم الله وهتك الدين بحيث لو لم يكن سلطان لكان تقواهم لله وخوفهم منه يمنعهم من ترك ما عليهم من حق ربهم ويردعهم عن الوقوع فيما حرمه عليهم وأخذ ما ليس لهم ، وأما الكثير من الناس فهم الذين يردهم خوف السلطان عن التعدي وأخذ ما ليس لهم بحق ولولا خوفهم من السيف والسوط ونحوهما لم ينكفوا ولم يرعوا لقصور نظرهم على أمور الدنيا وأحوال المعاش وقد قيل : الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع ، وقيل أيضا : الدين والملك توأمان ، ثم ان كان السلطان الذي هو قائم بالملك عادلا مصلحا كانت أخوة ملكه للدين صحيحة مسلمة وان كان السلطان انما رغب في الملك وتقلده وحرص عليه ليحصل لنفسه الرياسة والرفعة على الناس وليكون نافذ الأمر مسموع الكلمة رغبة في الدنيا وشهواتها كانت أخوة الملك الذي هو صاحبه للدين غير صحيحة ولا حقيقية بل هي صورية مجازية وما يتفق ويقع من الملك الذي هذا وصفه في حفظ أمور الدين وحماية أمور المسلمين وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فذلك بحكم الاتفاق والتبعية لتوقف استقامة الملك والرياسة الذي هو بصددها على ذلك ، وافهم هنا قوله عليه الصلاة والسلام « ان الله يؤيد هذا الدين بالبر والفاجر » وفي رواية « بالرجل الفاجر » وفي رواية « بأقوام لا خلاق لهم » وفي رواية « برجال ما هم من أهله » وأكثر ملوك هذه الأزمنة بل وأزمنة قد خلت انما نيتهم الدنيا ونيل الرياسات فيها والتمتع بالشهوات منها وقد ارتبط بقيامهم في ذلك خيرات كثيرة ومصالح دينية ودنياوية من أمن البلاد والعباد وقهر أهل الفساد والبغي والعناد ، فسبحان الله العليم الحكيم المدبر العظيم ، وقد قال عز من قائل كريم - ولولا دفع

الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين - ، وفى الآية الأخرى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز - وذلك عام فيمن نيته الآخرة والدين من الدافعين ، وفيمن نيته الدنيا والرياسات والشهوات العاجلة الفانية - قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا - وأعمالهم وأقوالهم وظواهر أحوالهم تدل على نياتهم وضمائرهم - وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون - ، وينبغى للسلطان وفقه الله تعالى أن يكون شفيقا رفيقا فى موضع الرفق ، ومع من يحسن معه ذلك من الضعفاء والمساكين والمظلومين وذوى الحاجات ، وأن يكون فيه شىء من الشدة والغلظة على الظالمين والمتجبرين وأهل البغى والتعدى حتى تقوم له الهيبة فى صدورهم وتتقيد من خوف السطوة أيديهم ويكون ذلك كله من الرفق والشدة بقدره فى موضعه ومع أهله ، وذلك من حسن السياسة فليكن السلطان أصلحه الله عارفا بطرائقها ومواقعها ، فعلى حسن السياسة والعلم بها مدار كبير فى أمور الولايات واستصلاح الرعايا ، وهى من ثمرات العقول الراجحة والعلوم الغزيرة ، ولذلك لا يحسنها ويقوم بها كما ينبغى إلا من كمل فى علمه وعقله وبصيرته وصبره ، ولذلك لم يوصف به من الملوك والسلاطين إسلاما وجاهلية إلا الآحاد منهم والأفراد . قال الامام الشافعى رحمه الله تعالى : سياسة الناس أشد من سياسة الدواب ، وذلك بين لاخفاء به . وعلى السلطان أصلحه الله أن يفتح الباب ويسهل الحجاب ليتيسر الوصول اليه لمن أراده ورغب فيه من المتظلمين وذوى الحاجات ، ثم ما أمكنه المباشرة له من ذلك بنفسه باشره ، وما لم يمكنه مباشرته لشغل هو أهم منه وأصلح للمسلمين ، فينبغى له أن يقيم فيه ويستكفى من يثق به فى دينه وكفايته من وزرائه ووجوه دولته ، وعليه أن لا يوسط بينه وبين رعيته ولا يستعمل عليهم إلا أهل الخير والدين والأمانة والصيانة ، فان السلطان بوسائطه وعماله الذين يكونون بينه وبين الناس ، فمهما كانوا أخيارا وأمناء بلغوا عنه وبلغوا اليه الأمور على ما عليه من غير تغير ولا زيادة ولا نقصان ، ومهما كانوا أشرارا مفسدين خونة بلغوا اليه الأمور على حسب أهوائهم ووفق أغراضهم الفاسدة ، فتلتبس بسبب ذلك الأمور وتضطرب الأحوال وينسب ما يصدر منهم الى السلطان مما يستحسن أو يستقبح ، فليتحرز السلطان غاية التحرز وليتحفظ نهاية التحفظ من وسائط السوء وعمال السوء ، وعليه أيده الله تعالى أن يظهر من نفسه الرغبة فى الخير والطاعة وإقامة أمر الله فى عباده ومحبة العدل والانصاف وكراهية الظلم والجور حتى يتقرب اليه أعوانه والمتصلون به بفعل مثل ذلك وإظهار العمل به ويرفعون اليه ما عرفوا منه الرغبة فيه وحب القيام من تلك الخيرات والمبرات ، فقد قالوا : السلطان كالسوق يجلب اليها ما ينفق فيها ، ومعناه أنه ان عرف منه الميل الى العمل بالحق والخير أكثر أعوانه من ذكر ذلك عنده وتقربوا اليه بالمعاونة ، وان عرف منه ضد ذلك كان الأمر منهم على وفق ما يناسبه ويتفق عنده وهذا الأمر قد عرف بالمشاهدة والتجربة ، وفى قريب منه قيل : الناس على دين ملوكهم ، ثم من ظهر له منه من وسائطه وعماله حسن النصيحة والأمانة والكفاية زاد فى تقريبه وإكرامه وإعلاء منزلته ، ومن ظهر منه غش وخيانة وإضاعة حذره من ذلك وهدده ، فان انزجر والا حط منزلته وعزله وأبعده فانه لا خير فى أهل الغش والخيانة والاضاعة ، بل هم السبب فى تخريب الممالك وإهلاك الرعايا واجتراء الأعداء ، وليتخذ السلطان أيده الله وزيرا عاقلا صالحا ناصحا ، وفى الحديث « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسى ذكره وان ذكر أعانه ، وإذا أراد به سوءا جعل له وزيرا غير صالح إن نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه » وليحترز والى الأمر من الظلم فانه أساس الخراب وأصل الفساد وسبب الدمار والبوار ، وإذا عرف به وانتشر عنه كرهته القلوب ونفرت عنه وأحبت زواله وهلاكه وانطلقت ألسنتها بذمه والدعاء عليه ، وقال عليه الصلاة والسلام « خير

أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشر أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » الحديث ، ومعنى الصلاة ههنا الدعاء لهم ، وقال عليه الصلاة والسلام « يد الله على الأمير مالم يجر ، فاذا جار رفع الله عنه يده » وقال تعالى - وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا - والقاسطون هم الجائرون ، وأما المقسطون فهم أهل العدل والانصاف . وليعلم السلطان أصلحه الله أنه لا يحل له في أموال المسلمين قليل ولا كثير ، وان الضرائب المضروبة عليهم من الجبايات والمكوس والعشور كلها من الظلم الفاحش والجور الشنيع ، والأموال التي تحل له ولأعوانه إنما هي أموار المصالح من الأموال التي لامالك لها معين ، ومن مات ولا وارث له وما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية ونحوها وأشباه ذلك من الأموال ، وقد ذكر الامام حجة الاسلام رحمه الله تعالى في كتاب الحلال والحرام من الاحياء وجوه الدخل التي منها يكون أموال السلاطين وحصرها في عشرة أقسام : وبينها بيانا حسنا .

وعليه أصلحه الله أن يجتنب الاسراف والتبذير حتى لا تدعوه الحاجة الى أخذ أموال المسلمين واستلاب مافي أيديهم والله تعالى إنما ملكه وولاه عليهم ليحفظ أنفسهم وأموالهم ويحرسها عن الظالمين والمعتدين ، فاذا ظلمهم هو واغتصبهم مافي أيديهم فمن الذي يحفظ ويرد أهل العدوان ، وقد صار الحافظ معتديا والحارس مضيعا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وعلى والي الأمر أصلحه الله تعالى أن يحرص كل الحرص على نصرة المظلوم ، والقيام مع الضعيف حتى يأخذ له حقه من القوي وليجتهد كل الاجتهاد ، وأن يكون ناصحا لرعيته باذلا وسعه في حمايتهم والذب عنهم ولا يغشهم ولا يطامع فيهم ولا يستكثر لهم مافي أيديهم وأن يحب لهم مايحب لنفسه من الخير ويكره لهم مايكره لنفسه من الشر ويحرص كل الحرص على إيصال النفع لهم ودفع الضر عنهم فيما يتعلق بأمور دينهم وأمر معاشهم ، فان الله تعالى إنما أقامه لذلك ، وفي الحديث « أيما وال ولي ولم يحط رعيته بالنصيحة إلا حرم الله عليه الجنة » الحديث ، ومهما كان الوالي مصلحا حسن الرعاية جميل السيرة كان على الرعية أن يعينوه بالدعاء له والثناء عليه بالخير ، ومهما كان مفسدا مخالطا كان عليهم أن يدعوا له بالصلاح والتوفيق للاستقامة ، وأن لايشغلوا ألسنتهم بذمه والدعاء عليه ، فان ذلك يزيد في فساده واعوجاجه ويعود وبال ذلك عليهم . قال الفضيل رحمه الله : لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها الا للامام ، لأن الله اذا أصلح الامام أمن العباد والبلاد ، وفي بعض الآثار عن الله تعالى أنه قال « أنا الملك وقلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه نعمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك وسلوني أعطف قلوبهم عليكم » الأثر بمعناه « ولما ذكر رسول الله ﷺ أمراء الجور ، وقيل له أفلا ننابذهم يارسول الله ؟ قال لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، وقال ان أحسنوا فلكم ولهم وان أساءوا فلكم وعليهم » وفي حديث آخر « أدوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم » وانما نهى عليه الصلاة والسلام عن منابذتهم ونزع اليد من طاعتهم لما يترتب على ذلك من الفتن والبلايا العامة التي يكون فيها هلاك الأنفس والأموال ، وقيل : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم . ومن الولايات الخطرة تولي القضاء بين الناس ، فعلى من بلي بذلك أن يتأنى ويتثبت ويجتهد بين عباد الله بما أنزل الله - ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله - وفي الحديث « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين » وفي الحديث أيضا « قاضيان في النار وقاض في الجنة قاض قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة : وقاض قضى بالباطل وهو لا يعلم أو يعلم فهما في النار » فليتحفظ القاضي أرشده الله غاية التحفظ من المحاباة والمداهنة ومراعاة خواطر الناس وليراقب الله تعالى وحده وليقض بالحق الذي أراه الله فان التبس عليه أمر فليتثبت حتى يتبين له الحق فان استبان والا فيدل عن القضاء في تلك الوقعة الى الصلح الواقع على التراضي والاختيار من غير اكراه ولا إجبار .

وليعلم أن أمر القضاء خطر مخوف الى الغاية ، ولذلك حذر منه الأئمة الأعلام من السلف الصالح مثل الامام

سفيان الثوري والامام أبي حنيفة وأشباههما : وعرضوا أنفسكم بسبب الامتناع للضرب والحبس وأضرار في البلاد وذلك مشهور من سيرهم ؛ ولم يزل أهل الحزم والاحتياط من أهل العلم يفرون من تولي القضاء ويمتنعون منه أشد الامتناع خوفا على أنفسهم واحتياطا لدينهم . وقد ولي قاضي القضاة الشيخ المحقق اسماعيل بن محمد الحضرمي اليمني وولي بعض اصهاره قضاء زبيد ، ثم انه دخل عليه في بعض الأيام فرأى عنده ثيابا لم يكن يراها عنده قبل أن يوليه القضاء ، فقال له من أين لك هذه ؟ فقال له من بركتك يا أبا الذبيح فقال له : دعني الله ان لم أعزلك فعزله ، وحكاياتهم في مثل ذلك كثيرة مشهورة : وفي تخويف القضاة وتحذيرهم قيل :

اذا خان الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاء

فويل للأمـــير وكاتبيه ... وقاضي الأرض من قاضي السماء

وليحذر كل الحذر من قبول الرشوة على الأحكام ، فان ذلك من أعظم الآثام ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الراشي والمرتشي » والرائش هو الساعي بينهما . ومن الولايات الخطرة التولي على أموال الأيتام وأشباهها من الأوقاف والصدقات . قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه « يا أبا ذر اني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » وقد عد عليه الصلاة والسلام « أكل مال اليتيم من الكبائر الموبقات » وقال الله تعالى - ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن - وقال تعالى - ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا - وأما الأوقاف والصدقات فينبغي للشفيق على دينه أن يتباعد عنها وأن لا يتولى على شيء منها فان بلي بشيء من ذلك فليتق الله فيه وليبالغ في حفظها وحسن القيام والنظر عليها أولا ، ثم يصرفها في مصارفها ويضعها في مواضعها فانه قد يأثم من المتولين لنحو الأوقاف والصدقات من لا يخون فيها ولا يأخذ منها شيئا ، ولكنه يضيعها ولا يحسن الحفظ لها ، فلا بد في ذلك مع الأمانة من حسن الحفظ والكفاية ، فالمضيع والخائن سيان في الاثم والتعدي ، ثم أن الوالي المتصف بالعدل والاحسان السائر في رعيته بالسيرة الحسنة المرضية عند الله مكان له في حسن قيامه بذلك من الله الثواب العظيم والجزاء الكريم فليصلح في ذلك نيته وليقم فيها صابرا محتسبا لوجه الله تعالى . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « من اجلال الله تعالى اجلال ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه والسلطان المقسط » وقال عليه الصلاة والسلام « يوم من سلطان عادل أفضل من عبادة ستين سنة » وقال عليه الصلاة والسلام « السلطان ظل الله في أرضه يأوي اليه المظلومون » وقال عليه الصلاة والسلام « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » وقال عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر والامام العادل ودعوة المظلوم » وأما اذا جار الامام وظلم فانه بأشر المنازل وأسوإ الأحوال وعليه يتضاعف العقاب والعذاب بعدد من ظلمهم من خلق الله وأضاع حقوقهم وأهمل أمورهم ولم يمنع بعضهم من ظلم بعض الى غير ذلك من الذنوب التي يتعرض لها ولاة السوء وأمراء الجور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « هذا الأمر في قريش ما اذا استرحموا رحموا واذا حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » وقال عليه الصلاة والسلام « يجاء بالامام الجائر يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه ، فيقال له سد ركنا من أركان جهنم » وقال عليه الصلاة والسلام « انه سيكون من بعدي أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وهو وارد علي الحوض » فاذا كان هذا الحال من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم في الشر فكيف يكون حال

هؤلاء الأمراء فى أنفسهم ، نعوذ بالله من البلاء ونسأله العافية فى الدنيا والآخرة وأن يجعلنا من أهل العدل والاحسان العاملين بطاعته وما يرضيه فى السر والاعلان .

[واعلم] أنه يجب ويتعين على من ولى أمرا من أمور المسلمين أن يعدل فيمن ولاه الله أمرهم وأن ينصح لهم ، فكذلك يجب على كل أحد أن يعدل فى رعيته الخاصة به من أهله وأولاده وما ملكت يمينه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقد ورد أن الانسان يكتب جبارا وما يملك الا أهل بيته : أى فيجور عليهم ، وورد أيضا أن أهل الانسان وولده يتعلقون به يوم القيامة ، فيقولون يا ربنا خذ لنا حقنا منه فانه لم يعرفنا ما يجب علينا من حقك ، فعليه أن يعلمهم ما يلزمهم من طاعة الله وفرائضه واجتناب محارمه ويعلمهم على القيام بذلك فعلا وتركا ، وعليه أن لا يظلمهم حقوقهم التى جعلها الله عليه لهم وأن لا يمكن بعضهم من ظلم بعض ، ويأخذ للمظلوم منهم من ظالمه ، وأما المملوك فعليه أن يقوم له بطعامه وكسوته ، وأن لا يكلفه من العمل والخدمة ما لا يطيق ، وأن لا يضربه ولا يشتمه بغير حق فانه ان فعل ذلك اقتص له منه يوم القيامة كما وردت بذلك الأخبار ، وان كان فى ملكه شىء من البهائم وجب عليه أن يتعهده ويحسن النظر عليه فى علفه وسقيه ونحو ذلك يتولى ذلك بنفسه أو يوليه من يثق به من أولاده وخدمه ، وفى الحديث « اتقوا الله فى هذه البهائم اركبوها صالحا » أو كما قال ، ورد فى الخبر « أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها حتى ماتت لا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » وبالله التوفيق والاعانة وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تبارك وتعالى .

الصنف الرابع وهم التجار والزراع والصناع والمحترفون وأشباههم من المباشرين لأحوال المعاش والمشغولين بالسعى له وبعض هذه الأشياء تعد فى فروض من الكفايات المعاشية والمعادية سيما ما هو منها بمثابة الأصول كالزراعة والحياكة ونحوهما

القول فى نصيحتهم وتذكيرهم وتنبيههم وتحذيرهم . قال الله تبارك وتعالى - ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون - وقال تعالى - نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات - الآية فسعى الانسان على نفسه وعلى من يلزمه السعى عليه من أهل وولد لطلب الحلال مأمور به ، وفى الحديث « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وفيه أيضا « من أمسى كالا من عمل الحلال أمسى مغفورا له » وفى الخبر أو الأثر « ان الله يحب المؤمن المحترف ويبغض السبهلل الذى لا هو فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة » وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الساعى على نفسه ليكفها عن مسئلة الناس وعلى أهله وأولاده الضعفاء كالمجاهدين فى سبيل الله ، وفى الحديث « التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين » ولكن على التاجر فى تجارته والصانع فى صناعته وظائف يلزمه القيام بها إما فرضا وإما ندبا متأكدا ، فأول ذلك أن يتعلم من العلم ما يعرف به ما افترض الله عليه وندبه اليه فى تجارته أو حرفته وصناعته والا وقع فى المحرمات والشبهات ، وصار بذلك فى سبيل الشيطان وليس فى سبيل الرحمن ، فعلى التاجر أن يتعلم من أحكام البيع والشراء والربا والسلم والقرض والرهن والاجارات ونحوها ، والمعاملات التى تقع له كثيرا مالا بد له من علمه ولا يباشر شيئا من المعاملات حتى يعلم حكم الله فيه ، وكذلك يجب على الصانع المحترف أن يتعلم حكم الله فى صناعته وحرفته وما يجب عليه فيها من النصيحة للمسلمين والا أثم ووقع فى الحرج وليجتنب الكذب والخلف فى الوعد فانه قد ورد « ويل للتاجر من لا والله وبلى والله ، وويل للمحترف من غد بعد غد » ومما ينبغى ويتأكد على التاجر والمحترف اصلاح للنية فيما يباشرونه ويتعاملون من أسباب التجارات والصناعات وأن تكون نيتهم فى ذلك العفاف وتحصيل الكفاف وكف النفس عن مسئلة الناس والتشوف الى ما بايديهم والقيام بمن يلزمهم القيام بهم من الأهل والأولاد ونحوهم

ليكونوا بهذه النيات من العاملين بطاعة الله تعالى والساعين فى ابتغاء مرضاته وثوابه وان يقصدوا مع ذلك صلة الأرحام والتصدق على الفقراء والمحتاجين وإعانة الضعفاء والمساكين مما فضل عن حاجاتهم وحاجات من يلزمهم القيام بهم ، فنية المؤمن خير من عمله ، وقد يبلغ بالنية إذا صلحت ما لا يبلغه بالأعمال والنية تتيسر على كل أحد إذ لا كبير مؤنة فيها ، والأعمال قد يتعسر القيام بها فى بعض الأحيان ، فان نوى التاجر والمحترف بتجارته وحرفته إعانة المسلمين وتسهيل الوصول الى الأشياء التى هو بسبيلها وساع فيها لم يخل من ثواب ، وإن كان إنما يعطيهم ذلك بمقابلة ومعاوضة منهم ، فان فضل الله واسع وأكرامه نافس ، ومن المهم المتعين على أهل التجارات والصناعات أن لا يشتغلوا بها عن اقامة الصلاة المفروضة بحيث يخرجونها عن أوقاتها أو يصلونها باستعجال واستيفاز يحصل به اخلال بما يجب من اتمام ركوع أو سجود ونحوهما من أركانها فان البعض منهم قد يحمله شدة الحرص على سرعة العود الى تجاراتهم وصناعاتهم على مثل ذلك وهو من المحرمات المحظورة فى الدين ، بل ومن المتأكد عليهم أن لا يؤخروا الصلوات عن أوائل أوقاتها وعن فعلها فى الجماعات فان ذلك كله : أى تأخير الصلاة عن أوائل الأوقات وتفويت الجماعات من الخسران فى الدين الذى لا تقابله الدنيا كلها لو أعطيها أحدهم ، وأن لا يقصروا فى رواتب الصلوات ووظائف الخيرات ونوافل العبادات التى يمكنهم المداومة عليها ، وأن يكون أحدهم فى حين مباشرته لتجارته أو صناعته تاليا للقرآن أو ذاكرا لله لا يشغله عن ذلك إلا أمر مهم ليس من اللهو واللغو والاستغراق بحديث الدنيا ، فان الجمع بين التلاوة للقرآن والذكر لله وبين مباشرة أسباب التجارة والصناعة ممكن ومتيسر فى أكثر الأحوال أو الكثير منها لمن وفقه الله تعالى وأهمه أمر دينه وأحوال آخرته ومعاده ، ومن الواجب المتأكد على أهل التجارات والحرف والصناعات اجتناب الكذب والغش فى تجاراتهم وصناعاتهم ، فقد قال صلوات وسلامه عليه « من غشنا فليس منا » حين رأى الصبرة من الطعام وأدخل يده الشريفة فيها فأصابت بللا ، فقال « ياصاحب الطعام ماهذا ؟ فقال : أصابته السماء يارسول الله ، يعنى : المطر ، فقال : هلا جعلته ظاهرا ينظره الناس ، من غشنا فليس منا » ومن الكذب الشديد التحريم على التجار وأرباب الصناعات أن يقول أحدهم أخذته بكذا وأعطيت به كذا وهو كاذب يخدع بذلك أخاه المسلم ويغشه ، فربما صدقه الآخذ منه ثقة به فيظلمه ويأكل ماله بالباطل ، وعليهم أن لا يكثروا الحلف بالله على سلعهم وصنائعهم وإن كانوا فى ذلك صادقين ، فان الله أعز وأجل من أن يحلف باسمه على أمر من أمور الدنيا ، وأما الحلف بالله تعالى مع الكذب والفجور فذلك من الكبائر ، وفى الحديث « ان الله يبغض البياع الحلاف ، وان الذى يحلف بالله فاجرا ليروج بذلك متاعه أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » وقال عليه الصلاة والسلام « اليمين منفقة للسلعة ممحقة للبركة » وفى رواية « للكسب » وقال عليه الصلاة والسلام « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فان صدقا وبينا بورك لهما ، وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما » فعلى أهل التجارات والصناعات أن يبينوا مافيها من العيوب التى لا تعرف إلا بتعريفهم وبيانهم فان لم يبينوا فقد غشوا وظلموا ومهما عاملوا من لا يحسن المعاملة لغباوته أو ضعفه فعليهم أن ينظروا له ويبالغوا له فى النصيحة ويعاملوه معاملة من يحسن المعاملة من أهل الحذق والمعرفة بأمور ذلك المتاع الذى يرغب فيه ذلك الضعيف الذى لا يحسن ، لا يسعهم الا ذلك ولا يسلموا من سخط الله الا به ولا يجعلوا ذلك الضعيف الذى لا يحسن فرصة ينتهزونها وغنيمة يغتنمونها كما يقع فى ذلك من لا يخشى الله ولا يتقيه من الصناع والتجار ، وليحذر التجار كل الحذر من تطفيف الكيل وبخس الميزان فان ذلك من المحرمات الشنيعة . قال الله تعالى - ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون - الى قوله تعالى - يوم يقوم الناس لرب العالمين - وقال عليه الصلاة والسلام « يامعشر التجار انكم وليتم أمرا

هلكت فيه الأمم من قبلكم المكيال والميزان » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وكان بعض السلف اذا
وزن لغيره أرجح حبة واذا وزن لنفسه نقص حبة : أى من النقد وكان يقول لا أشترى الويل من الله
بحبة ، وليحذر التاجر من الاحتكار ، ومن ترويج النقد الزائف على الناس ومن المعاملات الباطلة والبيوع
المكروهة فان ذلك ان نفعه فى دنياه فانه سوف يضره فى دينه وآخرته ضررا عظيما ثم انه يؤول به فى دنياه الى
المحق والهلاك وسوء العواقب فى جميع أحواله ، فأما الاحتكار فهو أن يشترى الطعام ونحوه فى حين حاجة
الناس اليه بنية الادخار له الى حين يغلو ، وورد « ان المحتكر ملعون والجالب مرزوق » وهو الذى يشترى ليبيع فى وقته
وينتفع بربح يسير ، وورد « ان من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم يكن تصدقه به كفارة لاثم احتكاره »
وورد « ان المحتكرين يحشرون مع قتلة النفوس » وقد أحرق أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى
عنه طعام المحتكر ، وأما ترويج النقد الزائف فهو من الغش المحرم والخداع المحظور فى الدين الا أن يكون
هو النقد الذى يتعامل الناس عليه فى البلد فهو وان غش من نحاس ونحوه فيجوز المعاملة عليه مهما كان
هو النقد الرائج فى البلد ، ولكن متى خالفه البعض منه بزيادة الغش فيه أو بكونه نحاسا خالصا لم يجز له أن
يروجه على الناس ويدخله فى جملة النقد الذى يتعاملون عليه فان ذلك منه غش ومخادعة ، وعلى من وقع
اليه شئ من النقد الذى هذه صفته أن يتلفه بأن يلقيه فى بئر ، ونحو ذلك من وجوه الاتلاف أو يذهب به
الى من يستخلص مقدار الفضة منه ، وما لقى من النحاس ، ونحوه يكون له قيمة على قدره ، وأما الذى
يكون فى أصله نحاسا خالصا فلا يدخله بين الدراهم التى تكون فيها الفضة مما يتعامل عليه الناس فان فعل
ذلك فقد غش وخدع - وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون - وأما المعاملات الباطلة فأقبحها وأخشها المعاملة
بالربا فان المعامل به متعرض لحرب الله ورسوله كما قال عز من قائل - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى
من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله - وقال تعالى - الذين يأكلون الربا
لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس - الى قوله تعالى - يمحق الله الربا ويربى الصدقات
والله لا يحب كل كفار أثيم - وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده ،
وقال عليه الصلاة والسلام « الربا بضع وسبعون شعبة أدناها مثل أن يأتى الرجل أمه » الحديث ، وما ورد
فى الربا من التشديد والتغليظ كثير منتشر ، والربا من الكبائر ، وجملة القول فيه أنه لا يحل بيع النقد بالنقد
ولا الطعام بالطعام الذى هو نوعه الا يدا بيد سواء بسواء ، فان اختلف النوع كالذهب بالفضة والحنطة بالذرة
جازت المفاضلة ووجب التقابض فى الحال من غير تأخير ولا نسيئة ، والحيلة فى الربا من الربا . وقد قال كثير من
العلماء بعدم جوازها وأنها لا تفيد شيئا سوى زيادة المقت والسخط وخشية الاحتيال على الله فى استحلال ما حرمه
بغير حجة ولا وجه مسوغ ، ومنهم من قال بجوازها بالنسبة الى أحكام الدنيا دون أحكام الآخرة ، وهذا أيضا
شديد لمن تأمله فان أحكام الدنيا قد تناط من حيث الظواهر بأمور قريبة مع كونها فى الباطن وبالنسبة الى أمور
الآخرة من الأمور الهائلة المسخطة لله تعالى الموجبة لمقته وشديد عقابه ، وانظر الى حال المنافق الذى يظهر
الايمان ويضمر الكفر كيف تجرى أموره الظاهرة كلها على مثل أمور المؤمنين ثم يكون فى الآخرة أسوء حالا
وأشد عذابا من الكافرين الذين أظهروا الكفر وذلك لمخادعته لله واحتياله عليه فلا يأمن المحتال بالحيل التى
يستحل بها ما حرم الله عليه أن يكون أسوء حالا ممن تعاطى ذلك المحرم ظاهرا من غير احتيال فلعل الله
أن يتجاوز عنه أو يوفقه للتوبة ، وأما هذا المحتال فمتى يتوب من شئ يرى أنه ليس بذنب ولا محرم عليه
وذلك من أعظم مكايد الشيطان يوقع الانسان فى بعض مساخط الله ثم يوهمه ويلبس عليه بأن ذلك من
الطاعات أو من المباحات فليحذر المسلم من أمثال ذلك وليحذر من غرور الشيطان فانه - من اتخذ الشيطان
وليا من دون الله ، فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا - فالمحتال فى

استحلال الربا الذى حرمه الله عليه بنذر أو اقرار ، ونحو ذلك وهو يعلم من باطنه أنه لم يقصد بذلك النذر والاقرار الا ليجيزه فى الظاهر على من لا يعلم بالباطن من المخلوقين مغرور مخادع لله القوى الظاهر الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يكتب لهؤلاء المحتالين والذى يشهد لهم بذلك مهما علموا ببواطن أمورهم ، وغلب على ظنهم قصدهم ذلك بقرائن أحوالهم شركاؤهم فى باطلهم وغرورهم ، وما يترتب على ذلك من التعرض لعقاب الله وعذابه ـ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ـ ثم اعلم أن مداخل الربا كثيرة ، وعلى التاجر أن يتعلم من ذلك ما يكثر وقوعه ويكثر تعاطى الناس له وما أشكل عليه بعد ذلك سأل عنه أهل العلم الذين يخشون الله ويتقونه دون العلماء المترخصين المتأولين الآخذين من العلم بظواهر أكثرها لا يصح ولا يستقيم عند العلماء بكتاب الله وسنة رسوله وسير السلف الصالح .

واعلم أن الربا وشبهه من المعاملات الفاسدة قد عمت فى هذا الزمان وفشت جدا ودخل فيها الخاص والعام الا من حفظه الله ـ وقليل ما هم ـ وهذا شىء قد وعد به الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه فانه قال « يأتى على الناس زمان لا يبقى أحد الا أكل الربا فان لم يأكله أصابه من غباره » الحديث ، ثم ينبغى للتاجر أن يأخذ فى جميع معاملاته بالعدل والاحسان اللذين أمر الله بهما فى قوله تبارك وتعالى ـ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ـ الآية ، أما العدل فباجتناب الظلم والغش وكتمان العيوب وبخس المكيال والميزان وسائر ما يحرم عليه فى بيعه وشرائه مع القيام بما يجب عليه من النصيحة والأمانة والوفاء ، وأما الاحسان فبأن يأخذ بالفضل والبر والمعروف من اقالة النادم بيعته بعد لزوم البيع ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من أقال نادما صفقته أقال الله عثرته » وأن يكون سمحا اذا باع ، سمحا اذا اشترى ، سمحا اذا قضى ، سمحا اذا اقتضى . قال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبدا سمحا اذا باع سمحا اذا اشترى سمحا اذا قضى سمحا اذا اقتضى » وأن يقنع بالربح اليسير سيما مع صديقه وقريبه والضعفاء من عباد الله من الفقراء والمساكين أن يكثر من الصدقات واصطناع المعروف ويغتنم ذلك ما دام يمكنه ويستطيعه وللسلف الصالح المباشرين للأسباب سير حسنة معروفة فى ذلك ذكر الامام الغزالى منها نبذة صالحة فى كتاب آداب الكسب والمعاش من الاحياء ، وعلى الصانع والمحترف أن يأخذ بنحو ذلك من العدل والاحسان فى صناعته وحرفته من اجتناب الظلم والغش والأخذ بالنصيحة والامانة والصدق والوفاء وما أشبه كل ذلك من أفعال أهل التقوى والاحسان الذين أخبر الله تعالى فى كتابه بأنه معهم حيث يقول ـ ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـ وينبغى للتجار والصناع اذا عاملهم من لا يحسن المعاملة لغباوة أو حاجة شديدة أن لا يغتنموه ويغبنوه بل ينظروا له الأصلح ويقدروا أنه يحسن المعاملة والنظر لنفسه وكونه من أعرف الناس بها فيعاملوه على ذلك التقدير والا وقعوا فى بأس وحرج ، وكانوا به من مؤثر الدنيا على الآخرة ، ومن لا يحب لأخيه المسلم كما يحب لنفسه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وبلغنا عن بعض السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين أنه كان يبيع حللا قيمة البعض كل واحدة منها ألف درهم وقيمة البعض منها كل واحدة خمسمائة درهم فاتفق أنه قام من دكانه وخلف فيه ولد أخيه فجاء أعرابى يطلب حلة فعرض عليه من التى قيمتها خمسمائة درهم فاشتراها منه بألف درهم وأعطاه الدراهم وأخذ الحلة ومضى فوجد الرجل الصالح صاحب الدكان فى طريقه والحلة معه ، فقال بكم أخذت هذه ؟ فقال له بألف درهم قال له انما قيمتها خمسمائة فقال له قد رضيت فقال وان رضيت فانا لا أرضى ولكن ارجع معى فاما أن تأخذ من التى قيمتها ألف بدراهمك واما أن تأخذ خمسمائة ، وهذه الحلة التى قد أخذت ، والا خذ دراهمك ودع لنا حلتنا فانطلق معه وأخذ خمسمائة درهم والحلة التى قد أخذها أولا . وعن السرى السقطى رحمه الله أنه أخذ أيام كان يتجر شيئا من اللوز بستين دينارا وكتب عليه الربح ثلاثة دنانير فبكث أياما قلائل ثم جاءه

الدلال ليأخذ منه اللوز ، وقال له بكم ، فقال بثلاثة وستين دينارا ، فقال له الدلال قد صارت قيمته فى هذا الحين تسعين دينارا ، فقال السرى انى قد نويت أن لا أربح فيه الا ثلاثة دنانير ، وقال الدلال انى قد عاهدت الله أن لا أغش أحدا ولا أغبن مسلما فامتنع السرى من البيع وامتنع الآخر من الشراء ، وحكاياتهم فى نحو ذلك كثيرة ، وذكر الامام الغزالى رحمه الله منها طرفا صالحا ، وهاتان الحكايتان من جملة ما ذكره ، وهؤلاء وأشباههم من العاملين فى دنياهم لآخرتهم والزيادة فى دينهم وحسناتهم قال الله تعالى فيهم ـ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ـ وقد قال عليه الصلاة والسلام « التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة » . وأما الزراع وأهل الحرث المشغولون بذلك فانهم على خير من ربهم وسعى لأحوال معاشهم اذا أصلحوا فى ذلك نياتهم واتقوا الله ربهم ولم يشتغلوا بما هم فيه من ذلك عن اقامة صلواتهم واجتناب ما حرم الله عليهم من المعاملات المحظورة عليهم فى دينهم من الربا ونحوه فان الزراعين كثيرا ما يأخذون بالمعاملة التى لا تصح عوجهم الى ذلك حضور الحاجة فى اقامة أنفسهم وعيالهم ومؤن زرائعهم ثم ان الذى يحصل لهم من الزرائع لا يحضر الا بعد وقت متراخ لأن حين الحصاد يتأخر مدة عن حين اقامة الزرائع ، وحاجة الزارع حاضرة الى المؤن التى يقيم بها أمر زراعتهم من البذر وغيره فيرجعون الى أهل التجارات ونحوهم يطلبون منهم ما يحتاجون اليه الى أجل يحضرهم فيه فوائد زرائعهم فلا يعطونهم الا بالربا المحرم حرصا على أرباح الدنيا وزياداتها ومنافعها التى تضرهم فى دينهم وآخرتهم فيشترك المعطى والآخذ فى الحرام والآثام والانتهاك والاقتحام للربا الذى هو من الكبائر الموبقات وان كان الآخذ عن ضرورة أو حاجة شديدة أعذر من المعطى له لطلب الربح والزيادة من تلك الأغراض الخبيثة التى ربحها خسران وزيادتها نقصان قال الله تعالى ـ يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ـ وفى البيع نسيئة والى أجل ، وفى عقد السلم بشروطه مندوحة وسعة عن الأخذ بهذا الربا المحظور المذموم ، وعن حيلة التى قد قال فيها ما قيل وفق ما قد تقدم قريبا ، وليكن الزارع طيب النفس محتسبا للثواب من الله فيما يصاب به فى زرعه من نقص أو آفة وما يأكله ذو كبد رطبة من آدمى أو بهيمة أو طائر فان ذلك فى صحائفه وموازين حسناته مهما احتسبه وأراد به وجه ربه ، وما عنده من حسن الأجر وعظيم الثواب قال عليه الصلاة والسلام « فى كل كبد رطبة أجر » وقد ورد فى ذلك الأخبار . وليحرص على إخراج الزكاة من زرعه مهما وجبت عليه وليفرقها على مستحقيها من الفقراء والمساكين ، وبقية الأصناف الموجودين الذين ذكرهم الله فى كتابه العزيز حيث يقول سبحانه وتعالى ـ انما الصدقات للفقراء والمساكين ـ الآية ، وليعمهم بها ان اتسع لهم القدر الذى يخرجه ، والا فلا يخرجها عنهم ويعطيها لغيرهم ممن ليس من الأصناف المذكورة فى الآية الكريمة فان المعتدى فى الصدقة كمانعها كما ورد ، وعلى أرباب الثمار والمواشى والنقود من الذهب والفضة والتجارات أن يخرجوا زكواتهم التى أوجبها الله عليهم فى أوقاتها وأن يفرقوها على المستحقين لها الذين سماهم الله فى كتابه وأن يقصدوا بذلك امتثال أمر الله وابتغاء وجه ثوابه الذى وعدهم به فى الآخرة ولا يقصروا عن ذلك ولا يتساهلوا فيه بترك الاخراج رأسا والعياذ بالله أو باخراج البعض منها أو باعطائها غير أهلها فكل ذلك من الآثام والمحظورات المتعرض متعاطيها للوقوع فى سخط الله وسخط رسوله فان تفاوتوا فى ذلك بحسب ما وقعوا فيه من تلك المهالك فان المقصر فى الاخراج رأسا اثمه عظيم وعصيانه لله فاحش فظيع ، وقد قرن الله بين الصلاة والزكاة فى غير موضع فى كتابه العزيز ، وقاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه الأعراب الذين منعوا الزكاة ، وقال رضى الله عنه : لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة ولو منعونى عناقا أو قال عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم

عليه ، وقد ورد فى السنة المطهرة فى مانعى الزكاة تشديدات هائلة وعقوبات عظيمة لانطول بذكرها وهى معروفة فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى منع الزكاة مضار عاجلة أيضا ، قال عليه الصلاة والسلام « ماخالطت الزكاة مالا الا عقبته وماهلك مال فى بر ولا فى بحر الا بمنع الزكاة » وقال عليه الصلاة والسلام « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء » وعلى أهل التجارات والزراعات وغيرهم من أهل الأموال أن يتعلموا من أحكام الزكاة مالابد لهم من علمه ، وما أشكل عليهم بعد ذلك فليسألوا عنه أهل العلم الذين يخشون الله ، والقول فى أحكام الزكاة وأدائها طويل منتشر ومحل بسطه كتب الفقه فليطلب مزيد ذلك منها ، ثم ان من أبرك وأعود ماياخذ فيه الانسان من أسباب المعاش التجارة مع الصدق والوفاء والأمانة والنصيحة للمسلمين . ثم الماشية ، قال عليه الصلاة والسلام « تسعة أعشار الرزق فى التجارة وعشر فى الماشية » وكذا الزراعة مع أن التعب فيها كثير والأجر والثواب لمن حسنت نيته واتقى ربه فيها عظيم » وفى الحديث « التمسوا الرزق فى خبايا الارض » فيقال انه حث على الزراعة ، وقال عمر رضى الله عنه « المتوكلون هم الزراع الذين يلقون بذرهم فى الارض و يبقون منتظرين لفضل الله » أو كما قال رضى الله عنه . ومن أطيب المكاسب وأحلها الاحتطاب والاصطياد وأخذ الحشيش من المواضع المباحة ، ومهما روعيت أسباب الحل مع الورع والاحتياط فى أخذ هذه الاشياء ، وفى بيعها كانت من أجل ما يكتسبه الانسان ويأكله ، وقد أخذ بذلك كثير من عباد الله الصالحين سلفا وخلفا . ومن المستحب التبكير فى طلب الرزق ، وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » وكان عليه الصلاة والسلام اذا بعث جيشا أو سرية بعثهم من أول النهار » وكان ابن وداعة الغامدى الصحابى رضى الله عنه ، وهو راوى هذا الحديث تاجرا ، وكان يبعث تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله . ومن المستحب المتأكد الاكثار من ذكر الله فى السوق قال عليه الصلاة والسلام « من دخل السوق فقال : لا إله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء » وقال عليه الصلاة والسلام « ان أطيب الكسب كسب التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا ، واذا ائتمنوا لم يخونوا ، واذا وعدوا لم يخلفوا ، واذا اشتروا لم يذموا ، واذا باعوا لم يمدحوا ، واذا كان عليهم دين لم يمطلوا ، واذا كان لهم لم يعسروا » قال عليه الصلاة والسلام « يوشك أن يكون مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » قال عليه الصلاة والسلام « من خير المعاش لهم رجل ممسك بعنان فرسه يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل أو الموت مظانه ورجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس الا فى خير » . وقال عليه الصلاة والسلام « من زرع زرعا فأكل منه طير أو عافية كانت له صدقة » والعافية هى الوحوش ، وقال عليه الصلاة والسلام « سبع يجرى للعبد أجرهن ، وهو فى قبره بعد موته : من علم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته » وعن فاطمة رضى الله عنها قالت « مر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة فحركنى برجله ثم قال يابنية قومى اشهدى رزق ربك ولاتكونى من الغافلين ، فان الله يقسم أرزاق الناس مابين طلوع الفجر الى طلوع الشمس » :

الصنف الخامس وهم أهل الفقر والضعف والمسكنة ونحوهم من أهل الأمراض والبلاء

القول فى نصحهم وتذكيرهم وتنبيههم وتحذيرهم

اعلم أن الفقر والضعف والمسكنة من الأمور التي جعل الله فيها ابتلاء، واختبارا لعباده لينظر صبرهم عليها ورضاهم بقضائه فيها، فمن صبر كان له أجر الصابرين، ومن سخط وجزع كان عند الله من الخاطئين قال الله تعالى – ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين – الى قوله تعالى – وأولئك هم المهتدون – وقال تعالى – ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين، ونبلو أخباركم – فالصبر على البلاء من الشدائد والثواب عليه لمن صبر عظيم كما قال تعالى – إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب – وقال رسول الله ﷺ «من يرد الله به خيرا يصب منه» وقال عليه الصلاة والسلام «ان الله اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط» وقال عليه الصلاة والسلام «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وانما جعلها الله سجن المؤمن ليزهد فيها ولا يرغب في طول الاقامة بها، قال ابن عطاء الله رحمه الله: انما جعل الله الدنيا محلا للأكدار ومعدنا لوجود الأغيار تزهيدا لك فيها، علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها انتهى. ومما ورد عن الله تعالى: يا دنيا مري لأوليائي لا تحلي لهم فتفتنيهم، وورد أيضا أن الله اذا أقبل على عبده توجه كله صرف عنه الدنيا كلها، وأوحى الله الى موسى عليه الصلاة والسلام: ياموسى، اذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته، واذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني أحبك، فقال له ان كنت كما قلت فاعدد للفقر تجفافا فان الفقر أسرع الى من يحبني من السيل الى منتهاه، فالفقر مع الصبر حلية الأنبياء وزينة الأصفياء، وفي الحديث «الفقراء الصبراء جلساء الله يوم القيامة» وقال عليه الصلاة والسلام «ان الله يذود عبده المؤمن عن الدنيا كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الغرة» وورد أيضا «ان الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب» ومعناه أن أهل المريض قد يمنعونه بعض الأطعمة وبعض الأشربة خشية أن تضره، وفي الحديث «الحمية أصل الدواء»، ولما كانت الدنيا عند الله بأوضع المنازل وأحقر الأشياء صان أولياءه وأحباءه عنها ورفعهم عن الميل اليها والتمتع بها، وقد بلغنا أن الله تعالى حين أرسل موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام الى فرعون اللعين قال لهما لا يروعنكما ما تريان عليه من زينة الدنيا فلو أردت لزينتكما بزينة يعلم فرعون أن مقدرته تعجز عنها، ولكني أرغب بكما عن ذلك. وقال عليه الصلاة والسلام «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» فانظر رحمك الله تعالى ما أحقرها عند الله وما أهونها عليه، وقد ورد أن الدنيا تقول يوم القيامة لربها يارب اجعلني لأدنى أوليائك فيقول لها سبحانه اسكتي يالاشيء، فقد علمت أنه سبحانه مازوى عنهم نعيم الدنيا وحماهم عن التمتع بشهواتها الفانية وحذرهم منها الا لخستها، وهوانها وكرامتهم عليه ورفعهم لديه لئلا يتدنسوا بأقذارها ويشتغلوا بمتاعها عما هو خير لهم وأنفع وأبقى وأرفع من كرامته التي ادخرها لهم عنده في الدار الباقية التي هم لها سابقون وفيها خالدون تلك الجنة التي وعد المتقون، وقد قال عليه الصلاة والسلام «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم» وهو خمسمائة عام فيكونون في سرور وحبور وروح وريحان والأغنياء محبوسون للحساب، ومن دون تلك المخاوف والأهوال الصعاب بسبب ما نالوه وتمتعوا به من لذات الدنيا وشهواتها

ثم اعلم أن الفقراء الزاهدين في الدنيا المتجردين عنها على أقسام: قسم منهم يفرون من الدنيا وان عرضت عليهم عفوا صفوا فليس يرغبون فيها اغتباطا بفقرهم وتفرغا عن الدنيا لطاعة ربهم وعبادته وذكره ومناجاته، وقد ذكر عن ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أنه جاءه شخص بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها منه وقال له تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بهذه العشرة الآلاف لا أفعل، وعن بعضهم قال رأيت فقيرا قاعدا على سجادة في المسجد الحرام، وكان معي شيء من الدراهم فوضعتها على طرف سجادته وسألته أن يقبلها، فنظر الي شزرا وقال: ياهذا اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بكذا وكذا ألفا غير

التقريرات :

العقارات والمستغلات، فتريد أن تتخلص عنها بدراهمك هذه، ثم قام ونفض سجادته ومضى فتبددت الدراهم وجعلت التقطها فلم أر أعز منه حين ذهب وركبها، وأذل مني حين بقيت التقط الدراهم، والحكاية بعضها وحكاياتهم في مثل ذلك كثيرة معروفة، ومن وصف أهل هذا القسم الفرار من الدنيا ومن دخولها في أيديهم إذا أقبلت عليهم، وربما قيل لبعضهم خذه وتصدق به فيأبى، فيقول: من جمعه أولى بتفريقه تكون العهدة عليه في الجمع والتفريق.

والقسم الثاني: لا يفرون من الدنيا إذا عرضت عليهم وأقبلت إليهم، ولكنهم يقبلونها ويفرقونها على المستحقين والمحتاجين في الحال الحاضر من غير انتظار ولا تأخير، وهذا هم الأقوياء من حزب الله وخلفائه في عباده، ولهم الأسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه صلوات الله عليه وسلامه لم يفر من الدنيا حين أقبلت ولكنه أنفقها في سبيل الله ووضعها حيث أمره الله فكان يعطي الرجل الواحد المائة من الإبل، وأعطى رجلا غنما بين جبلين، وأعطى العباس رضي الله عنه من المال ما عجز عن حمله، وقال عليه الصلاة والسلام « وما يسرني أن لي مثل أحد ذهبا تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه قيراط إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا » الحديث، وكانت هذه سيرته عليه الصلاة والسلام، وكان يعيش هو وأهل بيته عيش الفقراء على التمر والماء، وعلى خبز الشعير الغير المنخول، وكذلك كانت سيرة الخلفاء الراشدين من بعده أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، لم يفروا من الدنيا حين جاءت إليهم ولم يمسكوها للتمتع بشهواتها بل أخرجوها في الحال وبقوا على ما كانوا عليه من التقلل والتقشف، وصبرهم في ذلك مأثورة ومعروفة، وقد بلغنا أن ابن الزبير أرسل لعائشة رضي الله عنها بمائة ألف درهم فأنفقتها من ساعتها وكانت إذ ذاك صائمة: فلما قربت لها الجارية الفطور وكان خبزا وزيتا، قالت لها لم يمكنك فيما فرقت اليوم أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟ فقالت لو ذكرتيني لفعلت.

والقسم الثالث: قد يطلبون الدنيا ويسعون لها ولكن لم يقدر لهم منها ولم يقسم لهم فيها الأقدار الكفاية وأقل من ذلك، ولكن رضوا به وقنعوا وصبروا معرفة منهم بحسن الاختيار وعلما بأن الله زوى عنهم فضول الدنيا الخير أراده بهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام « قد أفلح من هدي إلى الإسلام وكان رزقه كفافا وقنع به » وقال عليه الصلاة والسلام في دعائه « اللهم ارزقني ما يكفيني وامنع عني ما يطغيني » وقال عليه الصلاة والسلام « من رضي من الله باليسير من الرزق رضي منه باليسير من العمل » فأما من طلب الدنيا وجد وشمر في السعي لها لكي يتمتع بشهواتها ويتنعم بلذاتها فذلك من طلاب الدنيا وأرباب الحرص عليها وأمره محظور ويخشى عليه فإن الطالب للدنيا على هذه الإرادة معدود من المؤثرين للدنيا الراغبين في متاعها سواء حصل له ما طلبه وأمله منها أم لم يحصل له، وإذا كان الطالب للدنيا ليبر بها ويتصدق منها، يقال له يا طالب الدنيا لتبر بها تركك لها أبر وأبر، فكيف يكون الأمر في حق من يطلبها للتمتع بالشهوات واللذات الفانيات؟ والنجاة في طلب الدنيا أن يطلبها العبد للعفاف والكفاف، فإن دخل في يده أكثر من ذلك من وجهه قدمه لآخرته وادخره لنفسه عند ربه، وأما الفقير الذي يطلب الدنيا فإن وجدها جمعها ومنعها، وإن لم يجدها يحسر عليها واشتد حزنه وتأسفه على فقدها، فذلك مذموم الحال وغير معدود من الفائزين في المآل سيما إذا اشتغل بطلبها والسعي لها عن طاعة ربه وحسن التزود لآخرته، ويخشى عليه أن يكون من الذين قيل فيهم إن أشقى الأشقياء من جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة، فالفقر مع الصبر والقناعة بما قسم الله والرضى بما قضاه لعبده من اختيار القلة على الكثرة والضيق على السعة من الدنيا من أعظم النعم: وأفضل الفضائل، وأما الفقر مع السخط والحزن والتبرم والتضجر فذلك من أعظم البليات، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر الذي يكون صاحبه على مثل تلك الصفة: وقال عليه الصلاة والسلام « كاد الفقر أن يكون كفرا » فلن

السخط لقضاء الله وعدم الرضا بما قسمه من الذنوب المهلكة والمعاصي الفظيعة الهائلة ، فليحذر الفقير من ذلك غاية الحذر . وقال عليه الصلاة والسلام « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والافلا » وأما الأمراض والعاهات وأنواع المصائب والبليات التي يوجهها الله الى بعض عباده فان فيها لهم من الأجر والثواب وحسن المواهب وكريم المآب مهما صبروا عليها ولم يسخطوا قضاء الله عليهم بها ولم يتبرموا ولم يجزعوا ، وقد قال الله تعالى - ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتمنين أهل العافية يوم القيامة أن لو قرضت أجسادهم بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء » وقال عليه الصلاة والسلام « مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » . وقال عليه الصلاة والسلام « عظم الجزاء مع عظم البلاء » . وقال عليه الصلاة والسلام « يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الثواب صبا يفرغ لهم افراغا » الحديث : وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبرح البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » . وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أحب الله عبدا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وسحه سحا ، فاذا دعا العبد قال يارباه ، قال لبيك عبدي لا تسألني شيئا الا أعطيتك إما أن أعجله لك وإما أن أدخره لك » وما ورد في ثواب البلاء مع الصبر والاحتساب كثير منتشر ، ومع ذلك فليس ينبغي للانسان أن يسأل الله البلاء ويدعو به فانه لا يدري ما يكون منه عند نزول البلاء عليه : فلعله يجزع ويسخط فيقع في الاثم والحرج ، بل ينبغي له أن يسأل الله العافية ، ويكثر من سؤالها ، ففي الحديث « ما أوتي الانسان بعد اليقين أفضل من العافية » ، « وما سئل الله تعالى شيئا أحب اليه من أن يسأل العافية » فهذا الذي ينبغي للعبد ويليق بضعفه ، فان وجه الله اليه بلاء وأراده به كان عليه أن يصبر ويحتسب ويرضى بقضاء الله تعالى ويسأل ربه اللطف به والعافية والتثبيت والتأييد ، وكذلك لا ينبغي لأحد أن يتمنى الموت لضر نزل به من مرض أو فقر أو نحوه من شدائد الدنيا ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان كان لا بد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي ، فان خاف فتنة في دينه لم يكن عليه في ذلك بأس ولا حرج » أعني تمني الموت ، فقد روي ذلك عن جماعة من الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين ، ومن الصبر المحمود الذي يعظم الثواب عليه الصبر على المصائب والفاقات وشدائد الدنيا . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاث منازل : صبر على طاعة الله وله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن معاصي الله تعالى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصائب وله تسعمائة درجة وفي الحديث « انما الصبر عند الصدمة الأولى » : أي عند أول مايرد عليه العلم بوقوع المصيبة . وقال عليه الصلاة والسلام « من أصيب بمصيبة ، فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا آجره الله وأخلفه خيرا منها » . وقال عليه الصلاة والسلام « قال الله تعالى ماجزاء من قبضت صفيه من أهل الدنيا فصبر الا الجنة » ، ومن الصبر المحمود الصبر على ما يقع من أذى الناس بأقوالهم وأفعالهم ، وهو أعلى الصبر ، والصبر على ذلك من شأن الأكابر والأئمة وأهل الاختصاص من الأنبياء والصديقين والأولياء والصالحين قال الله تعالى لرسوله الأمين - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين - وقال تعالى - ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم - وقال تعالى - اخبارا عن الرسل عليهم الصلاة والسلام - ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا - الآية : وقال تعالى حكاية عن قوم موسى عليه الصلاة والسلام - قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا - الآية : فعلى من ابتلي بشيء من أذى الناس أن يصبر ويحتمل ولا يتأذى ولا يقابل بمثل ذلك فان كان قد أبيح له ورخص له فيه ولم يرض بنصر

الله

الله له ولا يدعو على من ظلمه ولا يسبه ولا يشتمه ، فقد ورد « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وورد « أن المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عليه زيادة يطالبه بها يوم القيامة فيعود الظالم مظلوما والمظلوم ظالما » وأفضل من ذلك أن يعفو ويصفح من غير حقد ولا عبة شر ولا بلاء لمن آذله . قال الله تعالى - فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين - وقال تعالى - وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم - وقال عليه الصلاة والسلام « ينادى مناد يوم القيامة ليقم من أجره على الله فيقوم العافون عن الناس » وقال عليه الصلاة والسلام « من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر ثم سكت ، فقالوا ماذا له يارسول الله ؟ ، فقال عليه الصلاة والسلام : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، انهم ليدعون له ولدا ويجعلون له أندادا وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم » وقال عليه الصلاة والسلام « لقد أوذيت وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد الاشيئا يواريه إبط بلال » وذكر القشيرى فى الرسالة باسناده قال « أتت فاطمة رضى الله عنها الى رسول الله ﷺ بكسرة خبز ، فقال ما هذا يافاطمة ؟ قالت قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك به ، فقال أما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » ، ولما شكت اليه ﷺ ما تلقاه من الطحن وحمل الماء وغير ذلك من خدمة البيت وسألته خادما ، فقال لها كيف أعطيك خادما وأدع أهل الصفة ، ثم أمرهما هى وعليا رضى الله عنهما اذا أخذا مضجعهما من الليل أن يسبحا ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا أربعا وثلاثين ، ثم قال : وذلك خير لكما من خادم » الحديث « وقد كان يأتى على رسول الله ﷺ وعلى أهله الهلال والهلال والهلال ٣ فى شهرين لا توقد فى أبياتهم نار لطعام ولا غيره إنما يكونون على الأسودين التمر والماء » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : ما شبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام حتى قبض ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاويا لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم الشعير ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ قلت : لا أشتهيه يارسول الله ، قال لكنى أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولو شئت لدعوت ربى عز وجل فأعطانى ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فوالله ما برحنا حتى نزلت - وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دينارا يريد به حياة باقية فان الحياة بيد الله عز وجل ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد » وقال عليه الصلاة والسلام « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما ، فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت شكرتك وحمدتك » وعن الحسن البصرى رحمه الله تعالى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسى الناس بنفسه حتى جعل يرقع ازاره بالأدم ، وما كان يجمع بين عشاء وغداء ثلاثة أيام ولاء حتى لحق بالله عز وجل » صلى الله عليه وسلم وزاده شرفا وكرامة لديه

الصنف السادس : وهم الأتباع من الأولاد مع الآباء ، والنساء مع الأزواج ، والمماليك مع المالكين لهم

القول فى نصيحتهم وتذكيرهم وتنبيههم وتحذيرهم

اعلم أن هؤلاء يكونون فى الجملة فى تبعية غيرهم وتكون الحقوق الالهية المتوجهة عليهم أكثر وآكد من الحقوق التى لهم على الذين يكونون فى تبعيتهم من الآباء والأزواج والملاك وان كانت أيضا لهم حقوق فى الجملة على المتبوعين لهم . أما الأولاد مع الوالدين من الآباء والأمهات ، فقد قال الله عز وجل - وقضى ربك

أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا - وقال تعالى - واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا - وقال تعالى - أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير - وقال تعالى - ووصينا الانسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها - الى قوله تعالى - إني تبت إليك وإني من المسلمين - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أحب الى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » وقال عليه الصلاة والسلام « لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » وقال عليه الصلاة والسلام « رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخط الوالدين » ويروى عنه تبارك وتعالى أنه قال « من أصبح مرضيا لوالديه مسخطا لي فأنا عنه راض ، ومن أصبح مرضيا لي مسخطا لوالديه فأنا عنه ساخط » وقال عليه الصلاة والسلام « الوالد وسط أبواب الجنة . فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه » ، و « قال رجل يارسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ فقال عليه الصلاة والسلام هما جنتك ونارك » وقال عليه الصلاة والسلام « من سره أن يمد له في عمره ويزاد له في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه » . و « قال رجل يارسول الله : ان أبي أراد أخذ مالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : أنت ومالك لأبيك » وقال صلى الله عليه وسلم « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم » وقال عليه الصلاة والسلام « رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه ؟ قيل يارسول الله من ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام « أكبر الكبائر ثلاث : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور وشهادة الزور » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « ملعون من عق والديه » وقال عليه الصلاة والسلام « كل الذنوب يؤخر الله منها ماشاء الى يوم القيامة الا عقوق الوالدين فانه يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » وقال عليه الصلاة والسلام « يامعشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فانه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغي فانه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغي وإياكم وعقوق الوالدين فان ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام والله لا يجدها عاق لوالديه ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين والكذب كله اثم الا ما نفعت به مؤمنا أو دفعت به عن دين » وقال عليه الصلاة والسلام « ثلاثة حرم الله تعالى عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والديوث الذي يقر الخبث في أهله » .

اعلم أن حق الوالدين من أعظم الحقوق وبرهما من أهم المهمات وأقرب القربات وأفضل الطاعات لله رب العالمين ، وأن عقوقهما والاضاعة لحقهما من أفحش المعاصي وأكبر الكبائر وأقبح المحرمات ، فعليك رحمك الله بمعرفة حق والديك وحسن القيام ببرهما ، واحذر كل الحذر من عقوقهما والتهاون بحقهما واحرص كل الحرص على ابتغاء مرضاتهما ولزوم طاعتهما وادخال السرور على قلوبهما بكل وجه تستطيعه وتقدر عليه مع الاحسان مع كل أمر يسوؤهما ويشق عليهما ويجر الى سخطهما ، واستعن بالله واصبر - وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم - واعلم أن بر الأم يزيد على بر الأب ، ولعل سبب ذلك ما تقاسيه من مشقة الحمل والوضع وزيادة الشفقة والحنانة وما تعمله من مؤنة الرضاع والتربية ونحو ذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للسائل الذي سأله من أحق الناس بحسن البر ؟ ، فقال له أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك » الحديث ، ومن تمام بر الوالدين صلة أرحامهما وأصدقائهما وأهل مودتهما ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » وفي الحديث الآخر في حسن بر الوالدين وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما ، ومما ينبغي للوالدين خصوصا في هذه الأزمنة التي فشا فيها العقوق ، وقل فيها البر

والبارون أن يعينوا أولادهم على برهم بالمسامحة، وترك الاستقصاء في طلب الحقوق والقيام بكمال البر لئلا يحوجوهم ويوقعوهم في سخط الله وليغتنموا دعاء رسول الله ﷺ حيث يقول «رحم الله والدا أعان ولده على بره» وينبغي ويتأكد عليهم أن يحسنوا تربية أولادهم وتعليمهم وتأديبهم وأن يحفظوهم من قرناء السوء وخلطاء الفساد، وأن يغرسوا في نفوسهم معرفة الحق والدين ومحبة الخير وأهله والحرص على العمل به وبغض أهل الباطل والفساد والشر وأهله ليقع نشوؤهم على ذلك فيشتد حرصهم ورغبتهم إذا كبروا وأدركوا على الخير والصلاح والبر ومجانبة الشر والفساد، وكما يجب ويتأكد على الإنسان أن يبر والديه ويحذر من عقوقهما، فعليه أيضا أن يصل أرحامه وأقاربه، فإن صلة الأرحام من الأمور المهمة في الدين، وهي أعني الرحم مما أمر الله به أن يوصل في قوله عز وجل من قائل - والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - وقد لعن الله سبحانه وتعالى القاطعين لأرحامهم في قوله تعالى - فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم - الآية، وفي الحديث عن الله تعالى «هي الرحم وأنا الرحمن شققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» و«انه تعالى قال للرحم حين قامت، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك» وقال عليه الصلاة والسلام «من سره أن ينسأ له في أجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه» وقال عليه الصلاة والسلام «لا يدخل الجنة قاطع رحم» وقال عليه الصلاة والسلام «لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم» وقال عليه الصلاة والسلام «صلوا أرحامكم ولو بالسلام» وقال صلوات الله عليه وسلامه «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح» وهو الذي يضمر العداوة لقريبه المحسن اليه، وقال عليه الصلاة والسلام «الصدقة على القرابة صدقة وصلة» وقال عليه الصلاة والسلام «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

وأما النساء مع الأزواج فإن حقوقهم عليهن مهمة وكثيرة، وإن كان الحال من الرجال والنساء على ما وصف الله في كتابه العزيز حيث يقول: تبارك وتعالى - ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم - وقال تعالى - الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله - الآية، وقال رسول الله ﷺ «لو كان ينبغي لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها إذا دخل عليها لما فضله الله عليها» الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي من أي أبواب الجنة شئت» وقال عليه الصلاة والسلام «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة». وجاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: إني رسولة النساء اليك وما منهن امرأة علمت أو لم تعلم إلا وهي تهوى مخرجي اليك، الله رب الرجال، والنساء وأنت رسول الله الى الرجال والنساء، كتب الله على الرجال الجهاد فإن أصابوا أجروا وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال طاعة أزواجهن والمعرفة بحقوقهم، وقليل منكن من يفعله» وقال عليه الصلاة والسلام «والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها وهي على ظهر قتب بعير لم تمنعه» وقال عليه الصلاة والسلام «لا ينظر الله تبارك وتعالى الى امرأة لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه» وقال عليه الصلاة والسلام «إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فلم تأته فبات عليها غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح» ومن حقه عليها أن لا تأذن في بيته لمن يكرهه، وأن لا تخرج من البيت إلا بإذنه، وأن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه، وأن تحفظه في نفسها وفي ماله، وأن تحسن النظر على أولاده وخدمه، وأن تحفظ موضع سمعه وبصره وأنفه منها فلا يسمع منها إلا خيرا ولا

يبصر إلا احسنا ولا يشم إلا طيبا ، وأن تكون مستعدة لأن يستمتع بها فى أى وقت أراد لا تمنعه نفسها ، إلا بعذر شرعى من حيض أو مرض أو نحو ذلك ، وأن تكون شفيقة رفيقة متعطفة على أقاربه والمتصلين به ، وحقوق الزوج على زوجته كثيرة مهمة : وكما أن عليها له حقوقا فلها عليه حقوق أيضا فى القيام بالنفقة والكسوة والمعاشرة بالمعروف ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « خياركم خياركم لنسائهم » وقال عليه الصلاة والسلام « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » وقال عليه الصلاة والسلام « استوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم أخذتموهن بأمانة الله تعالى واستحللتم فروجهن بكلمة الله » الحديث ، وفى الحديث الآخر « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وان أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وان استمتعت به استمتعت به على عوجه فاستوصوا بالنساء خيرا » وقد تكرر منه عليه الصلاة والسلام الوصية بهن فى غير ما حديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « لن يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها بآخر » ومعنى يفرك يبغض فيحتاج الانسان فى معاشرتهن الى صبر وتغافل وحسن مداراة فإنهن خلقن من ضعف وقد وصفهن عليه الصلاة والسلام بنقصان العقل والدين ، فقال « ما رأيت أغلب للرجل الحازم منكن » أو كما قال صلوات الله عليه وسلامه ، وقد قال « الصبر منهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار » فينبغى أن يسامحها الرجل عما يعسر عليها القيام به من حقوقه ولا يسامحها بالتساهل بحقوق الله اللازمة عليها من الصلوات المكتوبات والاغتسال من الجنابة والتصون من الرجال الأجانب ، والتبرج بالزينة لغير الزوج والمحارم ، فإن الرجل الكامل هو الذى يسامح بحقوقه ولا يسامح بحقوق الله ، والتهاون بدينه وحفظ حرماته ، والرجل الناقص هو الذى يكون على العكس من ذلك ، فاعتبر هذا فى نفسك وفى غيرك :

ثم انه قد غلب على النساء فى هذه الأزمنة المفتونة من التبرج ، وقلة الحياء والتصون ما لا يخفى ، فينبغى لكل مسلم يخشى الله ويتقيه أن يبالغ فى حفظهن وصيانتهن ولا يقصر فى ذلك عن شىء يمكنه ويستطيعه وينبغى لكل متدين شفيق على دينه ونفسه أن يصون دينه ونفسه بزوجة صالحة يعف بها نفسه ويحصن بها فرجه ، وليمتثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ، يعنى النفقة فعليه بالنكاح فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وهذا هو الذى ينبغى ويتأكد فى هذه الأزمنة سيما فى حق الشباب الذين تكون الشهوة هى الغالبة عليهم . وأما أهل النسك والدين من الذين غلب عليهم التجرد للعبادة ، والاشتغال بمهمات الدين من العلوم والأعمال فليس يخفى عليهم ما يكون من الأولى والأحسن فى حقهم من التأهل أو تركه فإن عندهم من البصيرة بدين الله ما يكشف لهم عما هو الأحسن والأولى بهم من ذلك ، ويكون عندهم من رياضات النفوس وتأدب الجوارح ما يأمنون به على نفوسهم من الوقوع فيما يسخط الله تعالى عليهم ، وللانسان على نفسه بصيرة ، والزمان قد عظم فساده وتفاحش وخرج أهله عن شاكلة الصواب والاستقامة على جادة الحق والدين الا من شاء الله وقليل ما هم ، فالله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله . وفى الحديث « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل فيه على يد أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وأولاده يعيرونه بالفقر حتى يدخل مداخل السوء » أو كما ورد ، قال الحسن البصرى رحمه الله : ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهواه الا كبه الله فى النار ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام وقيل له إذا أنت مت فظهر الارض خير لنا أو بطنها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « إذا كان امراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان امراؤكم أشراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم الى نسائكم فبطن الارض خير لكم من ظهرها » فقد تبين أن المرأة الصالحة عون على الدين ، والمرأة الغير الصالحة تشغل عن الدين ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « فاظفر بذات الدين تربت يداك » الحديث

وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة التي إن نظرت اليها سرتك ، وان غبت عنها حفظتك في مالك وفي نفسها » وقال عليه الصلاة والسلام « أعظم النساء بركة أخفهن مؤنة » فمهما وجد الانسان المرأة الصالحة التي تعينه على دينه وعلى أمر آخرته كان التزوج أولى به وأفضل له والا كان الترك لذلك والتفرغ لعبادة الله والتخفف عن مؤنة النساء أحسن وأحمد عاقبة ، وقد ورد في الحديث « خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد » وكانت المرأة الصالحة من السلف الصالح تقول لزوجها اذا رأته مهموما : ان كان اهتمامك لأمر الآخرة فطوبى لك ، وإن كان لأمر الدنيا فالله لم يكلفك ما لا تقدر عليه ، وكانت رابعة الشامية امرأة أحمد بن أبي الحوارى رحمهما الله تعالى تطعمه الطعام الطيب وتطيبه وتقول اذهب بنشاطك إلى أهلك ، وكان له امرأة غيرها ، وكان إذا كان بعد صلاة العشاء تطيبت ولبست ثيابها وأتت الى فراشه وقالت له ألك حاجة ؟ فان كانت له حاجة معها والا نزعت ثيابها وانتصبت في مصلاها حتى تصبح ، وكانت هي التي دعت ابن أبي الحوارى الى التزويج بها لانه كان لها زوج قبله فمات عنها وورثت منه مالا فأرادت ابن أبي الحوارى يتصدى لانفاق ذلك المال على أهل الدين والخير في اطعام الطعام ونحوه لأن الرجل أوفق لذلك من المرأة وأقوم به فلذلك دعته لأن يتزوج بها رحمة الله عليهما . وأخبار النساء الصالحات من السلف في أمثال ذلك كثيرة ، و بلغنا أن فتحا الموصلي رحمه الله اذا سافر الى الحج أوغيره دخل النساء على زوجته وجعلن يتحزن و يتشفقن عليها لغيبته عنها وعن عياله فقالت لهن : ان فتحا لم يكن رزاقا ، وانما كان يأكل الرزق فقد غاب من يأكل الرزق ، و بقي من يرزق وهو الله تعالى ، وبالله التوفيق والاستعانة . وأما المماليك والأرقاء فمن آكد الأشياء عليهم وأهمها في حقهم بعد ما يجب عليهم من حق الله وفرائض دينه اللازمة طاعة ملاكهم وخدمتهم والنصيحة لهم من عباد الله الذين ملكهم الله رقهم وجعلهم لهم عبيدا وخولا ، ولهم في القيام بذلك لملاكهم الثواب العظيم ، وعليهم في تركه واضاعته الاثم الكبير ، وقد وردت بذلك الأحاديث وكثرت فيه الآثار ، قال عليه الصلاة والسلام « المملوك الذي يؤدي حق ربه تعالى وحق سيده يؤتى أجره مرتين » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لولا الحج والجهاد وبر أمي لأحببت أن أكون مملوكا ، يريد لما في ذلك من عظيم الثواب ، فعلى المملوك حسن النصيحة لسيده . وكمال الأمانة فيما ائتمنه عليه من ماله والقيام بما يستطيعه من خدمته من غير تكاسل ولا تقصير ، وعلى المالك أن يقوم له بنفقته وكسوته وأن لا يكلفه من العمل ما لا يطيق وأن لا يشتمه ولا يضربه الا بحق ، ومتى احتاج الى ضربه لأمر لا يترتب عليه صلاحه واستقامته في دينه أوفيما يتعلق بالخدمة اللازمة له فليكن ذلك على وجه لطيف لا يعظم مشقته ولا يشتد تعبه على المملوك فانه ان تجاوز في ذلك القدر المأذون فيه يأثم ويحرج ويقتص لمملوكه منه في الدار الآخرة كما ورد في الحديث ، وان عفا عنه وصفح كان ذلك أفضل وأحسن الا أن تكون في الضرب والتأديب مصلحة بينة ، وتكون في تركه مفسدة ظاهرة تعود على السيد أو على المملوك . وقد سئل عليه الصلاة والسلام « كم يعفى عن المملوك في كل يوم ؟ فقال سبعين مرة » ، وقال عليه الصلاة والسلام لخادم قصر في شئ « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك » وقال عليه الصلاة والسلام « للمملوك نفقته وكسوته وأن لا يكلف ما يغلبه » يعني من الخدمة وقال عليه الصلاة والسلام « هم اخوانكم ملككم الله اياهم ولو شاء لملككم اياهم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فان كلفتموهم فأعينوهم ولا تعذبوا خلق الله » الحديث ، وقد وردت بنحوه أحاديث وآثار كثيرة ، ومما يحرم على المملوك الاباق على سيده ، وقد ورد فيه وعيد شديد ، قال صلى الله عليه وسلم « اذا أبق العبد لم تقبل له صلاة » وفي رواية « فقد كفر حتى يرجع اليه » أي الى سيده ، وقال عليه الصلاة والسلام « أيما عبد مات في اباقه دخل النار وإن

كان قتل فى سبيل الله » وقال عليه الصلاة والسلام «أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتى يرجع اليهم »
وذكر الشيخ العلامة أحمد بن حجر الهيثمى رحمه الله فى كتابه [الزواجر عن إقتحام الكبائر] قال: قد روى
الامام أحمد بن حنبل رحمه الله عن عائشة رضى الله عنها « أن رجلا قعد بين يدى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال ان لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك فان كان عقابك اياهم
بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك ، وان كان عقابك اياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل
فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أما تقرأ قول الله تعالى - ونضع
الموازين القسط ليوم القيامة - الآية الى قوله تعالى - وكفى بنا حاسبين - فقال الرجل يارسول الله ما أجد لى
ولهم خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار » .

واعلم أن من المتبوعين الذين يتأكد على الأتباع حقوقهم وكمال الأدب معهم المعلمين للقرآن والعلم والمشايخ
والاساتذة الذين يربون السالكين ويرشدون الطالبين ، فيتعين ويتأكد على المتعلمين منهم والسالكين
المتربين بحسن نظارهم تعظيمهم وتوقيرهم واجلالهم واحترامهم وحسن الأدب معهم وكمال الامتثال لما
يشيرون به ويرشدون اليه من العلم والأدب ، وقد قال بعضهم : ان للمعلمين والمرشدين على المتعلمين
والمسترشدين من الحق والطاعة والبر مثل أو أقرب مما للوالدين على الأولاد ، بل قال بعضهم : حق المعلم والمرشد
آكد من حق الوالد لأن الوالد يحفظ الولد من الآفات التى يخشى عليه فى جسمه ودنياه ويتسبب له فى
تحصيل ما يلتذ به ويستريح اليه نفسه فى أحوال معاشه ، والمعلم والمرشد يحفظه بتعليمه وارشاده مما يضره
فى آخرته ومعاده ويكون سببا له وسبيلا له فى الوصول الى دخول الجنة ونعيمها الدائم والفوز بلقاء الله الذى
هو غاية السعادات وأجلها ، وقد درج الأخيار من السلف والخلف على تعظيم المعلمين والاساتذة ومعرفة
حقهم وكمال الأدب معهم ، حتى قال الربيع بن سليمان : ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر الى هيبة
منه ، وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : من حق العالم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم
بالتحية ، وأن لا تجلس أمامه ولا تشيرن عنده بيدك ولا تغمزن بعينك ، ولا تقولن : قال فلان خلافا لقولك
ولا تغتاب عنده أحدا ولا تسار فى مجلسه ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه اذا كسل ولا تعرض : أى لا تشبع
من طول صحبته ، وقد ذكر الامام النووى رحمه الله تعالى فى كتاب التبيان نبذة صالحة من آداب المتعلم
مع المعلم فى آخر الباب الرابع ، وذكر الامام الغزالى رحمه الله فى كتاب بداية الهداية من ذلك طرفا صالحا .

واعلم أن أجل المتبوعين وأكرمهم وأعظمهم وألزمهم حقا على كافة المسلمين رسول الله صلى الله عليه
وسلم فانه الامام الأعظم على الاطلاق ، والمتبوع الأكبر بالاجماع والاتفاق ، فحقه أعظم الحقوق بعد حق الله
والأدب معه آكد الآداب وطاعته ألزم الطاعات ، فان من أحبه وعظمه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد
أطاع الله ، قال الله تعالى - قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور
رحيم - وقال تعالى - من يطع الرسول فقد أطاع الله - وقال تعالى - وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب - وقال تعالى - فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم
فتنة أو يصيبهم عذاب أليم - وقال تعالى - ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم - الآية
وقال تعالى - فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون - وقال
تعالى - ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض
أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - والآية التى تليها ، وقال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى
أكون أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه » وقال عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا

لما جئت به » وقال عليه الصلاة والسلام « لو كان موسى وعيسى حيين لم يسعهما الا اتباعى » الحديث
وقال عليه الصلاة والسلام « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله » وقال عليه الصلاة
والسلام « كلكم يدخل الجنة الا من أبى ، فقالوا ومن يأبى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : من أطاعنى دخل
الجنة ومن عصانى فقد أبى » وقال عليه الصلاة والسلام « من آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله أدخله
النار » الحديث ، ومن تمام حبه وتعظيمه وحسن الأدب معه عليه الصلاة والسلام محبة أهل بيته وأصحابه
رضى الله عنهم وتعظيمهم واحترامهم ، قال الله تعالى - قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى - وقال
تعالى - والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه -
الآية ، وقال عليه الصلاة والسلام « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى
بحبى » وقال عليه الصلاة والسلام للعباس رضى الله عنه « لا يدخل قلب أحد الايمان حتى يحبكم لله
ولقرابتكم منى » وقال عليه الصلاة والسلام « لفاطمة وعلى والحسن والحسين رضى الله عنهم : أنا حرب لمن
حاربتم وسلم لمن سالمتم » وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث زيد بن أرقم رضى الله عنه « وعترتى أهل
بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » الحديث ، وقال أبو بكر رضى الله عنه « ارقبوا
محمدا فى أهل بيته » وقال عليه الصلاة والسلام « احفظونى فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا من بعدى ، فمن
أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن
آذى الله فيوشك أن يأخذه » وقال عليه الصلاة والسلام « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم
مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » فليحذر المسلم المشفق على دينه من بغض أحد من أهل بيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من أصحابه ، فان ذلك يضره فى دينه وآخرته ، ويعد به مسيئا إلى نفسه ، ومؤذيا
له صلى الله عليه وسلم وليحبهم ويثن عليهم بالخير كما أثنى الله به ورسوله عليهم . ومما ينبغى دينا كف
اللسان عن كثرة الخوض فيما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ووقع بينهم من الحروب
والفتن ، ومن أهوال ذلك وأعظمه إشكالا مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم ما وقع بين
أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وبين طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم يوم
الجمل ، وبين أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وبين معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص
رضى الله عنهم بصفين ، فليلتمس المؤمن الشفيق على دينه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمثال
ذلك أحسن المخارج ويحملهم فيه على أجل المحامل اللائقة بفضلهم وجلالة أقدارهم ، فانهم رضى الله عنهم
عدول أخيار أمناء ، فليكن المؤمن المتبع لهم باحسان على مثل ما وصف الله فى شأن قوله سبحانه - والذين
جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا
ربنا إنك رءوف رحيم - وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « اذا ذكر أصحابى فأمسكوا » وقال
عليه الصلاة والسلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقال عليه الصلاة والسلام « خير القرون
قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « احفظونى
فى أصحابى وأصهارى فمن حفظنى فيهم حفظه الله فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يحفظنى فيهم تخلى الله منه ومن
تخلى الله منه أوشك أن يأخذه » وبالله الاعانة والتوفيق .

الصنف السابع وهم المشغولون بطاعة الله تعالى والملازمون لها من عامة المسلمين

وكذلك الملابسون لمعاصى الله والواقعون فيها من العامة أيضا

القول فى تذكير المشغولين بطاعة الله من العامة

اعلم أنه قد تقدم فى ذكر الصنف الثانى الذين هم الخاصة من عباد الله نبذة من التعريفات والتنبيهات

اللائقة بأحوال تلك الخاصة من أولياء الله والمنقطعين اليه نفعنا الله بهم وبارك لنا ولكافة المسلمين فيهم ولاحرمنا بركاتهم ومستجاب دعواتهم ، فعلى العامى الملازم لطاعة الله تعالى والمداوم عليها أن يتعلم مالابد له منه من العلم الذى لايصح ولاتتم طاعته الابه من العلوم الظاهرة : مثل أحكام الطهارة والصلاة والصيام ومافى معنى ذلك ، وعليه أيضا أن يعرف من علوم الايمان الاعتقادية مايحصن به معتقده من العلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله والعلم باليوم الآخر من البعث والحشر والميزان والصراط والجنة والنار ، فيحصل من العلوم الايمانية ، والعلوم الاسلامية مايصح به ايمانه واسلامه ويتمان ويكملان به فذلك مقدم على اشتغاله بالعبادات ومواظبته عليها ، فان العلم كالأساس والعبادة كالبنيان ، ومالا أساس له لاثبات له ، وربما اشتغل المتعبد بطاعات وعبادات يستغرق بها أوقاته ويتعب فيها نفسه وهو فيها غير محمود ولا مأجور بل ربما كان ملوما ومأزورا اذا كان لم يعلم بما لابد له منه من عليه فى إقامة عباداته وصحتها وكمالها من العلوم الايمانية والاسلامية ، فليكن المتعبد فى نهاية الاعتناء بذلك والاهتمام به والتفرغ له ، وقد قيل : من عبد الله بغير علم كان الضرر العائد عليه من عبادته أكثر من الانتفاع بها ، وذلك صحيح ، فان بعض المتعبدين الذين لاعلم لهم قد يوقعون بعض العبادات على غير الوجه المشروع فيأثمون ، ولو أنهم تركوا تلك العبادة لم يأثموا بتركها مهما كانت نافلة ، فان العلم هو المهم المقدم على الأخذ فى العبادة والتفرغ لها ، وعلى المتعبد أن يتحرى الحلال فى مطعمه وملبسه وسائر مايحتاجه من أحوال معاشه ، فان العبادة مع أكل الحرام ولبسه غير مقبولة لقوله تعالى ـ انما يتقبل الله من المتقين ـ وقد قيل : العبادة مع أكل الحرام كالبناء على السرجين ، وقال عليه الصلاة والسلام « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » فليكن فى غاية من التحرى والاحتياط والاحتراز فى مطعمه وملبسه وسائر مايحتاجه عن الحرام والشبهات ، والا كانت عبادته مدخولة معلولة وغير مرضية ولامقبولة ، وعلى المتعبد أن يصلح نيته ويتفقدها من أول أمره ومبتدإ تعبده فتكون نيته فى ذلك مقصورة على ارادة وجه الله تعالى والدار الآخرة ، وقصد التقرب الى الله والخدمة له دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية ، والحظوظ النفسانية من حصول جاه أومال أومحبة عند الناس أوتعظيم أوثناء منهم ، وليحذر كل الحذر من مراءاة الناس بعلمه والتصنع لهم بعبادته فيحبط بذلك عمله ويخيب سعيه ويبطل أجره وثوابه ، وربما حصل له مع ذلك من الله العقاب وأليم العذاب ، فان الرياء من أعظم الجرائم الموبقات ، وقد سماه عليه الصلاة والسلام « الشرك الخفى والشرك الأصغر » وذكر « أن القارئ لكتاب الله والشهيد فى سبيله والمنفق لماله اذا أرادوا مع ذلك المحمدة من الناس والذكر عندهم أنه سبحانه وتعالى يكذبهم ويسخط عليهم ويأمر بهم فيسحبون الى النار » الحديث ، ولما حدث به بعض السلف رحمه الله تعالى بكى بكاء شديدا وقال صدق الله تعالى حيث يقول ـ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ـ الآية ، وليس الرياء المحظور هو الخواطر التى تقع فى قلب الانسان من قبل الخلق ، وهو غير مختار لها ولامطمئن اليه ، فاذا كانت هى الباعثة له على العبادة فقد أحبطت العبادة من أصلها ، وان كان له مع ذلك باعث دينى كان فى ذلك تفصيل ، وقد شرحه الامام الغزالى رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة ، والكل محظور منهى عنه وفيه خطر وذم كثير وردت به الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة مثل قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه تبارك وتعالى « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فنصيبى لشريكى وأنا منه برىء » وورد « أنه يقال للمرائين اذا التمسوا ثواب أعمالهم يوم القيامة اذهبوا الى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم » ، وورد « ان أدنى الرياء شرك » ، وان المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يامرائى ياغادر ياخاسر يافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا » فليحذر المسلم المتقى لربه المشفق على

دينه وآخرته كل الحذر من الرياء بجميع أنواعه وعلى جميع وجوهه، وليحترز من ذلك أتم الاحتراز، وإن وقع
له شيء من خواطره وعوارضه فليجتهد في نفيها عن نفسه بإمكانه وليكره ذلك ثم يستغفر الله منها ويستعيذ
بالله من شرها، وليحذر من التكبر على الناس بعبادته واستعظام نفسه عليهم بطاعته، فإن ذلك مما يسخط
الرب ويحبط ثواب الأعمال الصالحة، وفي الحديث «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» وقد قال صاحب
الحكم رحمه الله: «رب معصية أورثت ذلاً وانكسارا خير من طاعة أورثت صاحبها عزا واستكبارا» فشأن
المطيع المحسن أن يزداد بطاعته خشوعا لله وخضوعا وتواضعا لعباد المؤمنين، وذلك من أفضل الطاعات، وكذلك
فليحذر من العجب بنفسه وبطاعاته فإن ذلك من المحبطات وليعلم أن المنة لله عليه حيث استعمله بطاعته
ورضيه لخدمته مع أنه عبد حقير ذليل فقير فقد شرفه سبحانه وأجله حيث جعله ممن يعبده ويطيعه ويذكره
ويشكره، فالفضل والمنة له تبارك وتعالى أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وعاجلا وآجلا، وليعلم أن حق الله على عباده
ولزوم طاعته ووجوب عبادتهم إياه وخدمتهم له من الأمور التي لا يستطيع أحد من العباد أن يقوم بالبعض
منه ولو بلغ في الطاعة والعبادة ما عسى أن يبلغ واجتهد وجد وشمر حتى يستوفي إمكانه ويستفرغ استطاعته
ووسعه فليعترف العبد بتقصيره عما يجب عليه القيام به من عبادة ربه وليعترف بمنة الله عليه فيما وفقه له
من طاعته وخدمته ولا يعجب بنفسه ولا بعمله فيهلك من حيث يرجو النجاة ويخسر من حيث يأمل الربح
وقد قال عز من قائل عظيم — ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من
يشاء والله سميع عليم — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قيل ولا أنت يا رسول
الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» هذا ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من نهاية الجد والتشمير
والاجتهاد في عبادة الله حتى قام من الليل إلى أن تورمت قدماه مع ما له من المكانة والمنزلة عند الله التي
لا يساوى به فيها أحد من عباد الله المكرمين، وأصفيائه المقربين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين
وحديث الرجل العابد الذي عبد الله خمسمائة سنة في الجزيرة وأنه يوقف بين يدي الله، فيقول له سبحانه
وتعالى: يا عبدي أدخل الجنة برحمتي، فيقول بل بعملي يا رب، فيأمر الله به، فيحاسب بنعمة البصر فتستغرق
جميع عبادته خمسمائة عام وتبقى نعم الله عليه كثيرة فيأمر به سبحانه إلى النار فيقول يا رب أدخلني الجنة
برحمتك فيأمر الله به سبحانه إلى الجنة برحمته» وفي الحديث طول، فليعلم العبد المتعبد لله أن الفضل لله عليه
أولا وآخرا وباطنا وظاهرا وعلى كل حال وفي كل موطن، وكيفما تقلبت به الأحوال فليحمد الله ويشكره
وليعترف بالمنة له والنعمة وبالقصور والتقصير عما يجب له من الحق، ومن العبادة والخدمة ولو بلغ من
ذلك ما بلغ وانتهى فيه إلى ما عسى أن ينتهي، وقد بلغنا أن لله ملائكة منذ خلقهم الله تعالى وهم في عبادته
منهم القائم لا يركع والراكع لا يسجد والساجد لا يرفع إلى يوم القيامة، فإذا كان ذلك اليوم رفعوا رؤوسهم
إلى ربهم، وقالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، الأثر في ذلك بهذا المعنى أو قريب منه، وعلى المشغول
بعبادة الله تعالى أن يكون في عبادته خاشعا لله وخاضعا، حاضر القلب لا يغفل عن الله، ولا يكون مشغول
الظاهر بعبادته تعالى ومشغول القلب بحديث النفس في أمور الدنيا وأحوال المعاش، وذكر الناس فيكون
بذلك مسيء الأدب مع ربه حيث يعبده ويعمل له بظاهره دون باطنه وبجسمه دون قلبه، وفي الحديث «إن
الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وكذلك يحذر من العمل مع العجلة فيه، وقلة
التأني حتى لا يتمكن مع ذلك من إعطاء العبادة حقها من واجب أو مسنون، كما هو مثل الذي لا يرتل في
قراءته ولا يتدبر ولا يطمئن في ركوعه واعتداله وسجوده وجلوسه، فيحصل بسبب ذلك من صلاته وقراءته
على غير طائل ولا نفع، وربما تبطل العبادة بسبب ذلك من أصلها، إذا أخل منها بواجب فيكون قد تلبس
بعبادة غير صحيحة، فيخرج منها مأزورا غير محمود ولا مأجور، وعليه أيضا أن يقتصد في عبادته ويتحرى

منها على القدر الذي يقدر على المداومة عليه من غير ملالة ولافتور ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « تكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فان الله لايمل حتى تملوا » . وقال عليه الصلاة والسلام « القصد القصد تبلغوا » وقال عليه الصلاة والسلام « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل » فعلم أن القليل من العمل يداوم عليه صاحبه خير من الكثير الذي لايداوم عليه ، ومن شأن الشيطان لعنه الله أن يغري الانسان في أول الأمر بالاستكثار من العبادة والافراط فيها لكن يرجع في آخر الأمر ، إما الى الترك والملالة ، وإما الى فعلها مع العجلة فيها التي لايتمكن معها من اقامتها على وجهها من الخشوع والخضوع مع الله فيها فيصير حاله كحال من لم يعمل أو أدنى فرب فعل لايحسنه صاحبه يكون التارك له أحسن حالا منه كما هو معروف ومشاهد من حال من يعمل ولا يحسن وقد قال الله تعالى - إنا لانضيع أجر من أحسن عملا - وقال تعالى - ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - فانظر كيف خص الاحسان ويشترطه في الأعمال تعلم به أن الاحسان في العمل أهم من العمل نفسه ، وفي الحديث « ان الله كتب الاحسان على كل شيء » فاذا عملت طاعة فتأن فيها وتثبت وأحسن وأعط كل جزء منها ما يكمل به ويتم من الخشوع والحضور مع الله فيه تكن من المحسنين ويكون الله سبحانه وتعالى معك إذ يقول تعالى - ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - وعليك أن لا يمر بك وقت ولا ساعة ولا نفس الا ويكون لك وظيفة من الخير تستغرقها به من صلاة أو تلاوة قرآن أو ذكر الله أو مطالعة علم نافع أو تفكر في أمر ديني أخروي أو شغل بمعاش لاتستغني عنه في الاستعانة على معادك وآخرتك من غير ترخص ولا تأويل ولا تعلل ، بل يكون وجه الاستعانة به بينا ظاهرا ، والله يتولى هداك واعانتك ويأخذ بناصيتك الى مايحبه ويرضاه ، ويقربك اليه ويزلفك لديه فانه الولي المعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

القول في تذكير الملابسين للمعاصي من عامة المسلمين وتخويفهم وتحذيرهم

اعلم أن المعاصي أقذار وأرجاس وأوساخ وأدناس ، قد عصم الله منها رسله وأنبياءه ، وحفظ منها أولياءه وأصفياءه ، وابتلي بها الأعداء والأشقياء والمطرودين والبعداء من الذين حقت عليهم الكلمة وتخلفت عنهم العناية ، ثم ان من أولئك الطوائف من يداركته الرحمة ووفق للتوبة فلحق بأهل الطاعات « والتائب من الذنب كمن لاذنب له » ومن تاب تاب الله عليه « ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أي تبلغ روحه الحلقوم من الموت ، ومنهم من أصر على المخالفة وتمادى على المعصية حتى خرج من الدنيا وصار الى الدار الآخرة فلقي ربه دنسا ملطخا بقاذورات المخالفات فكان أمره على نهاية من الخطر وغاية من الاشكال والضرر وخصوصا ان كان الذي مات وهو مصر عليه من الكبائر الموبقات مثل ترك الصلاة المكتوبة ومنع الزكاة المفروضة ومثل الزنا وشرب الخمر وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل ومثل عقوق الوالدين وأكل مال اليتيم وأشباه ذلك من المعاصي الموبقات والذنوب المهلكات ، وعلى الجملة فالشرور كلها والبليات بجملتها المستجلبة للعقوبات والمهلكات العاجلة والآجلة الدنيوية والأخروية الظاهرة والباطنة انما سببها الوقوع في الذنوب والمخالفات والتجري على الله الملك الجبار ومبارزته بما يسخطه من خلاف أموره وركوب نهيه ، قال الله تعالى - فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون - وقال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - وقال تعالى - أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون - إلى قوله تعالى - وان ربكم لرءوف رحيم - فعلى المؤمن الخائف لربه المشفق على نفسه المصدق بالرجوع إلى الله وانه ملاقيه أن يجتنب الذنوب والمعاصي كل الاجتناب ، ويحترز منها غاية الاحتراز ويبتعد عنها غاية البعد ويتركها في الاجتناب لها بمنزلة

السموم القاتلة والمياه المغرقة والنيران المحرقة ، فان للملابسة لها والوقوع فيها أشد من ذلك كله من وجوه كثيرة كما يعرف ذلك من له بصيرة في الدين وهل يشعر عباد الله المؤمنين المتقين - الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون - و - الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون - وليحذر كل الحذر مهما وقع في شيء منها من الاحتجاج بسبق القدر عليه من الله بالوقوع فيها ، وأن ذلك مكتوب عليه ، وليس له محيص عنه ، فان ذلك من الحجج الداحضة التي لا تغني عن صاحبها شيئا ولا تنفعه بل تضره وتزيده من الله بعدا وتعرضه للمقت والسخط من الله ، وعلى الجملة فالايمان بالقدر خيره وشره واجب في أصل عقود الايمان ، والاحتجاج به على الله غير جائز ، بل ذلك من الأمور الخطرة الشنيعة ، وما دام الانسان واختياره ثمة فليس له رخصة ولا سعة في أن يترك أوامر الله ويرتكب نواهيه وليس ينفعه قوله : هذا مقضي ، وقد كتب علي ، ومن أين له علم ذلك ، ومسألة القدر هذه مسألة مشكلة وفيها أغوار بعيدة يتعسر العلم بها على الخاصة فضلا عن العامة ، وكذلك من أضر الأشياء على الواقعين في معاصي الله تعالى وترك أوامره أماني المغفرة ، وقولهم : إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة ولا يبالي ، وذلك صحيح وحق ، ولكن لا بد للعبد من امتثاله لأمر سيده الكريم الرحيم واجتنابه لما نهاه عنه ، وعليه أن يبذل جهده واستطاعته في ذلك ويستفرغ فيه طاقته وإمكانه ، ثم يرجو بعد ذلك غفران ربه ورحمته ولا يتمنى ولا يغتر من غير جد ولا سعي ، فيكون بذلك ممن قال فيهم تبارك وتعالى - فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا - الآية ، وقال تعالى - فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ، ومعنى دان نفسه حاسبها ، وقال عمر رضي الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على الله تعالى » وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه « ألا رب مبيض لثيابه ومدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء وعمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرها » ، وقال الحسن البصري رحمه الله : إن أماني المغفرة قد لعبت بأقوام حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، يقول : عن الأعمال الصالحة ، وقال أيضا : وإياكم وهذه الأماني فانها أدوية النوكى : أي الحمقاء .

[واعلم] أن الله تعالى لم يذكر الرحمة والمغفرة في وصفه لنفسه بذلك إلا وقيد ذلك بقيود وشرطه بشرائط مثل قوله تعالى - وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - وقوله تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم - ونحو ذلك من الآيات ، وما وجد منها مطلقا فيحمل على المقيد منها ، وقد قال عز من قائل كريم - أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات - الآية ، وقال تعالى - أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار - فقد علم وتبين أن الرجاء بلا عمل ولا سعي غرور وأماني ومع ذلك العمل والسعي رجاء وحسن ظن ، ثم انا قد بسطنا الكلام في بيان هاتين المسألتين : الاحتجاج بالقدر عند الاضاعة لأمر الله ، وأماني المغفرة مع ركوب المخالفة وتسويف التوبة في الكتاب المسمى بالنصائح الدينية فلينظره من أراد المزيد على ما هنا ، والكل شاف كاف بعون الله وبركات رسوله لمن اتبع الهدى واجتنب الردى ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب ، وكذلك ينبغي للانسان أن لا يحدث نفسه بالتوبة من الذنب قبل الوقوع فيه ، فان ذلك ربما يسهل عليه الوقوع فيه ويهون على قلبه الارتكاب له فيكون مثاله مثال الذي يتناول الطعام المسموم اعتمادا على أنه يتناول الدواء الشافي منه ، فيكون ذلك

سبب هلاكه أو مرضه لأن الدواء ربما يتناوله من غير استجماع شرائط التناول له ، وربما تعرض عوارض أخر تمنعه من تناول الدواء من تسويف وتأخير وقصد معاودة وغير ذلك .

واعلم أن الاجتناب عن الذنب والتباعد عن المعاصي أسهل وأيسر من التوبة منها بعد الوقوع فيها من وجوه كثيرة ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالتوبة من الذنوب اذا وقعوا فيها ورغبهم لذلك ووعدهم بقبولها فضلا منه ووصف نفسه بذلك في كتابه العزيز ، فقال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون - وقال تعالى - غافر الذنب وقابل التوب - الآية ، ثم ان للتوبة شرائط لا تتم إلا بها ولا تصير أهلا لأن تقبل إلا باجتماعها والاتيان بها على وجهها ، فأول ذلك وأولاه الندم الصادق على ما سلف منه من الذنوب . قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة » والمعنى : أنه اذا صح الندم وكان صادقا كاد أن يتضمن ويجمع شرائط التوبة كلها ، ومن عد العلماء أن يعزم على أن لا يعود الى الذنب الذي تاب منه ما عاش ، وأن لا يكون بحال توبته ملابسا ولا مصرا على شيء من الذنوب التي تاب منها ، وعلى التائب أيضا أن يخرج من مظالم العباد التي كان ظلمهم بها من نفس أو عرض أو مال ، وأن يبلغ في ذلك نهاية إمكانه واستطاعته ، وأن يقضي ما فاته من فرائض الله المكتوبة عليه من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك فانها لا تتم توبته ولا تصير أهلا للقبول من الله حتى يأتي بجميع ذلك وما ضاق عنه الوقت الحاضر أخذ فيه وعزم على التدارك حسب الامكان والاستطاعة من غير تسويف ولا تكاسل ، ثم انه لا يزال بين الخوف والرجاء يخاف أن لا تقبل منه التوبة لتقصيره عن القيام بشرائطها وما يلزمه فيها ويرجو من فضل ربه قبول توبته وغفران حوبته ، والعفو عن ذنبه بمحض جوده وكرمه ، فانه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . ومن علامات التائب الصادق في توبته ملازمة الحزن والانكسار وكثرة البكاء والتضرع والاستغفار وهجران المواطن التي عصى الله فيها ومفارقة قرناء السوء وخلطاء الفساد من الفجار ، ثم ان الذنوب منها الكبائر ومنها الصغائر ولا بد في جميعها من التوبة غير أنها من الكبائر أوجب وآكد ، وقد تكفر الصغائر بالصلوات والجماعات والحسنات كما قال عليه الصلاة والسلام « الصلاة الى الصلاة كفارة ما بينهما اذا اجتنبت الكبائر ، والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهما اذا اجتنبت الكبائر ، ورمضان الى رمضان كفارة لما بينهما اذا اجتنبت الكبائر » وقال عليه الصلاة والسلام « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » وقال مولانا جلت قدرته - إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين - وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في تعريف الكبائر وعدها حتى قال بعضهم : انها مبهمة في الذنوب ليكون الانسان على نهاية التحفظ والاحتراز من المعاصي كلها من خوف أن يكون في الذنوب ما يأتيه منها من الكبائر ، وذلك على نحو ما قالوه في اسم الله الأعظم في أسمائه تعالى ، وفي ساعة الجمعة وفي ساعات يومها وليلة القدر في ليالي شهر رمضان ولذلك له وجه ، ولكن ما جاءت به الأحاديث في تعريف أمثال ذلك هو المعتمد والمأخوذ به ، وبالله التوفيق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين ، وقول الزور وشهادة الزور » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات » والأحاديث بنحو ذلك كثيرة ، وقد ألف الشيخ الامام أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى كتابا حافلا سماه [الزواجر عن اقتراف الكبائر] عد فيه منها ما يزيد على الأربعمائة ، ولكنه عد شيئا في الكبائر لا يوافق على كونه كبيرة ، ولكنه قد يقيد في أول ذكرها بقيود ويبنه في آخرها بتنبيهات يكاد يسلم بذلك من الاعتراض عليه في عد ذلك من الكبائر ، وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله تعالى في كتاب [قوت القلوب] أن الكبائر سبع عشرة ، ثم عدها ، فقال

الكبائر سبع عشرة: أربع في القلب: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وأربع في اللسان: القذف، وشهادة الزور، والسحر، وهو كل كلام يغير الإنسان أو شيئا من أعضائه، واليمين الغموس، وهي التي يبطل بها حق أو يثبت بها باطل، وثلاث في البطن: أكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا، وشرب كل مسكر، واثنتان في الفرج: الزنا واللواط، واثنتان في اليد: القتل والسرقة، وواحدة في الرجل: الفرار من الزحف، وواحدة في جميع البدن: عقوق الوالدين. انتهى، وهو كلام حسن جامع لا يكاد يصادف مثله في بابه، فعليك رحمك الله بالاحتراز البالغ من جميع الذنوب صغائرها وكبائرها، فرب صغيرة قد تكون على صاحبها أضر من كبيرة، والذنوب كالنار قد تحرق الشرارة منها القرية الواسعة، وعن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه قال: وإن الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث: خبأ رضاه في طاعته فلا تحتقروا من الطاعة شيئا فلعل رضاه سبحانه يكون فيه، وخبأ سخطه في معصيته فلا تستحقروا شيئا من المعاصي فلعل سخطه سبحانه يكون فيه، وخبأ ولايته في خلقه فلا تستحقروا منهم أحدا فلعله أن يكون وليا لله تعالى، انتهى. وقد ورد «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار»، وقال بعض السلف: المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، وقال غيره «الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين»، وقال آخر: إن كنت تعصي الله وأنت ترى أنه يراك فأنت مستهزئ بنظر الله، وإن كنت تعصيه وأنت ترى أنه لا يراك فأنت كافر، وقال آخر: من عصى الله وهو يضحك دخل النار وهو يبكي، وقال آخر: المؤمن يرى ذنبه كالذي ينحت في أصل جبل وهو تحته كل ساعة يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب يقع على أنفه، فقال بيده هكذا فأطاره، نسأل الله أن يحملنا بستره، ويسترنا بعافيته ويعافينا من مخالفته وعصيانه وإضاعة أمره، فإنه نعم المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الصنف الثامن، وهم المشركون الذين يدعون مع الله إلها آخر، تعالى الله عما يقولون وعما يدعون علوا كبيرا، وهم أصناف منهم المشركون ومنهم المعطلون والجاحدون إلى غير ذلك وكلهم في ضلالة وظلمات بعضها فوق بعض غير أن البعض منهم أشد ضلالة وكفرا وأكثر بهتانا وافتراء، وليس لأحد منهم حجة ولا برهان بوجه من الوجوه.

القول في دعوتهم إلى الله وإلى توحيده والإقرار له سبحانه بالألوهية والربوبية من غير شريك له في ذلك ولا منازع

قال الله تعالى ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله ـ وقال تعالى ـ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ـ وقال تعالى ـ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ـ وقال تعالى ـ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ـ وقال تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ وقال تعالى ـ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ـ وقال تعالى ـ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ـ وقال تعالى ـ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ـ وقال تعالى ـ إن الشرك لظلم عظيم ـ وقال تعالى ـ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ـ وإذا كان هذا التشديد العظيم الهائل والوعيد الفظيع الشنيع في حق من يدعو مع الله إلها آخر ويشرك به سواه في الألوهية مع أنه يقر ويعترف لله بالألوهية والربوبية فكيف يكون الحال وعظيم الوبال والنكال في حق من ينكر أنه ليس للعالم إله من المعطلة، ويقول إن

إلهاً غير الله تعالى وتقدس عن قوله وافترائه - أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون - والأنعام والبهائم بل والنبات والجمادات مقرة ومعترفة وشاهدة بخالقها وموحدها بالألوهية والوحدانية والربوبية ، ولو كانت تنطق لأعربت عن ذلك وأفصحت به كقول الله تعالى - تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده - الآية ، وقال تعالى - أولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون - إلى قوله تعالى - يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون -

ولما كانت العرب قد أعطيت من التميز وأيدت من المعقول بما لم يؤيد به غيرها من الأمم لم يصدر عنها الانكار لوجود الحق سبحانه وتعالى ، بل أقرت بوجوده وبكونه الخالق لكل شيء والرازق له كما حكى الله ذلك عنها في غير ما آية من كتابه مثل قوله تعالى - ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله - وقوله - ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله - وقوله تعالى - قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون - الى غير ذلك من الآيات المصرحات بما ذكرناه عن مشركي العرب ، وبين ذلك ما حكى الله عنهم في قوله تعالى أنهم قالوا فيما أشركوا به من دون الله - ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى - أي انهم جعلوها وسائل ووسائط يقصدون بعبادتهم التقرب الى الله فأخطئوا في ذلك ، ولكنهم أقروا بوجود الحق وبكونه الخالق لهم ولكل شيء وأنهم انما عبدوا ما عبدوه من الأصنام لتكون وسائل لهم عنده ، ومقربات لهم اليه وكانوا أعني مشركي العرب يرجعون الى الله في الشدائد وكشف المهمات والمصائب ولا يطلبون ذلك ولا يسألونه الا منه كما أخبر الله بذلك في كتابه عنهم في مثل قوله تعالى - وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا إياه - وقوله تعالى - وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون - أي تتضرعون وتستغيثون ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم «كم لك من إله قال عشرة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إلى أيهم ترجع عند الشدائد فقال الى الله فقال أسلم يا فلان فانه ليس لك من إله غير الله» الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام لآخر وهو يدله على الله «هو الذي إذا ضلت راحلتك وأنت بأرض فلاة فدعوته ردها عليك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك» ، وما أحسب أن أحداً يعقل الا وهو متأله إلى إله تقضي عليه بذلك فطرته التي فطره عليها وتشهد له بربوبيته خلقته التي خلق عليها أصاب في ذلك من أصاب وأخطأ فيه من أخطأ وما من إله الا الله العزيز الحكيم ، فمصنوعاته سبحانه ومخلوقاته ومبتدعاته التي ملأ بها أرضه وسمواته شاهدة له بالألوهية وناطقة له بالوحدانية ، وقد أجاد وأحسن القائل الذي يقول :

فيا عجباً كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولما دعى أصحاب الكهف إلى عبادة غيره سبحانه وتعالى ، وأن يعترفوا بالربوبية للعبد المربوب الذي ليس بأهل لذلك أنكروا ولم يقروا ولم يعترفوا لما قذف الله في قلوبهم من النور ، وألقى فيها من التصديق والايمان به تعالى - فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً - إلى قوله تعالى - ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً - وكذلك لما أن السحرة الذين جاء بهم فرعون اللعين ليدفع بسحرهم وكيدهم بزعمه الحق والبرهان الذي بعث به موسى وهارون عليهما السلام ، فعند ما عرفوا وتحققوا أن الامر الذي بعث به موسى وهرون عليهما السلام أمر سماوي إلهي لا يطاق له دفاع ولا يستطيع أحد أن يرده ولا يغالبه أقروا بالحق واستسلموا وأسلموا وآمنوا بالله وحده فقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون - ولم يردهم عن ذلك ولم يصرفهم عنه ما توعدهم به فرعون

لعنه

لعنه الله من قطع للأيدي والأرجل من خلاف وصلبهم على جذوع النخل ، بل قالوا في الرد عليه والاستهانة بما توعدهم به - لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض - الى قوله تعالى - والله خير وأبقى - ثم أنه لعنه الله لم يسعه ولم يمكنه أن يرد عليهم ولا أن يدفعهم عن الايمان بالحجة لأنه عرف وتبين له بان لا حجة له بذلك ولا قوة له على الدفع ، فعدل إلى قوله لهم - آمنتم له قبل أن آذن لكم - تنكرا منه ومدافعة بما لا ينفعه ولا يقوم له به حجة لأن الايمان بالله والتوحيد له هيبة لا يمكن لأحد بعقل أن يدفع أحدا عنه ولا يجادله فيه لأنه الأمر الواضح البين الذي قامت به الحجج ، واتفقت عليه الأدلة القاطعة من السمعيات والعقليات ، فاعلم ذلك وتأمله حق تأمله فانه أمر مهم ويكاد يشار اليه بما ذكره الله تعالى من آيات عديدة تشمل قوله تعالى - ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به - وقوله تعالى - ماتدعون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان - الآية ، وقوله تعالى إخبارا عن أصحاب الكهف - هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا - فالمدعي مع الله إلها آخر لا تقوم له بما ادعاه حجة البتة ، بل حجته بذلك بينة البطلان والاستحالة ، فلذلك يعدل المدعي الى غير ذلك كما عدل اليه فرعون لعنه الله ، وكذلك نمروذ فيما حكى الله عنه من محاجته ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى - ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك - الى قوله تعالى - فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين -

ثم اعلم أن التوحيد أعظم النعم وأكبرها وأنفعها لأهل الدنيا والآخرة ، فعلى من أنعم الله به عليه وأكرمه به أن يعرف قدر نعمة الله بذلك وأن يسعى في حفظها ودوام الشكر والاغتباط بها وأن يجتهد في تقوية توحيده وثباته وتأكيده بملازمة الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة والطاعات الخالصة التي هي من فروع التوحيد وثمرات الايمان مع الاحتراز والاجتناب لأضداد ذلك من الأخلاق السيئة والأعمال المنكرة التي هي من مضعفات الايمان وموجبات تزلزله واضطرابه حالا ومآلا لاسيما عند الموت . قال الله تعالى - ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون - وقال ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وكان السلف الصالح رحمهم الله تعالى يقولون : المعاصي بريد الكفر ، فليبذل المؤمن نهاية جهده وامكانه في حفظ إيمانه وتقويته وتأكيده وتثبيت أركانه وليستعن بالله وليصبر على ذلك ويداوم عليه حتى يأتيه اليقين .

ثم اعلم أن الايمان هو أصل الأصول وأنفس النفائس وأعز الأشياء وهو مع ذلك أشدها خطرا وأشقها حفظا وأحوجها الى حسن التعهد والتفقد وحسن النظر والاحتياط وكل عزيز ونفيس ، فعلى مثل ذلك يكون ويوجد ولا يزال المؤمن الشفيق على دينه المحتاط لايمانه ويقينه سائلا من الله ومتضرعا اليه في أن يثبته على دينه وإيمانه ، وأن لا يزيغ قلبه بعد إذ هداه الى توحيده ومعرفته ، وأن يكون خائفا من سلب ذلك وزلزله ، وقد كان بعض السلف يحلف بالله انه ما أمن أحد إيمانه أن يسلبه الا سلبه ، وذكر عن ابليس لعنه الله أنه قال : قصم ظهري الذي يسأل الله حسن الخاتمة ، أقول متى يعجب هذا بعمله أخشى أنه قد فطن فالأمر الذي عليه المدار والتعويل والذي لا ينبغي لعاقل من أهل الايمان أن يكون أعظم اهتماما به وأشد حرصا عليه وسعيا له من سلامة التوحيد وحفظ الايمان حتى يموت ويخرج من الدنيا على ذلك بفضل الله وحسن تأييده وتثبيته فانه إن خرج من الدنيا على ذلك سلم من الشر كله وفاز بالخير كله دائما أبدا ، وان خرج من الدنيا على خلاف ذلك خسر خسرانا مبينا وهلك هلاكا مؤبدا والعياذ بالله ، ففقد التوحيد والايمان هو الذي لا ينفع مع فقده شيء بحال كائنا ذلك الشيء ما كان ولو كان عمل الأولين والآخرين ، وحيث بقي مع العبد توحيده وإيمانه وسلما له ، فليس يضره شيء ولو كان عاصيا مذنبا ، فاما أن يغفر الله له

أو يعفو عنه وإن عاقبه على ذنبه كانت عقوبة منقضية غير مخلدة ولا مؤبدة فإنه لا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وقد أمر الله عباده المؤمنين بأن يموتوا على الإيمان والإسلام ووصف أنبياءه ورسله والصالحين من عباده بأنهم يسألونه ذلك ويدعونه به ويتواصون به حرصاً عليه وإعظاماً له واغتباطاً به، فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون - وقال تعالى - ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون - وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام - أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين - وقال تعالى إخباراً عن المؤمنين من السحرة حين توعدهم فرعون لعنه الله - وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين - وقد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث الكثيرة الشهيرة في بشارة أهل التوحيد والإيمان ومن مات وهو لا يشرك بالله شيئاً بالنجاة من النار والفوز بالجنة وغير ذلك من الخيرات والدرجات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» وفي رواية لمسلم «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»، «وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله ما الموجبات؟ قال من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار» وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ «يا معاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار قال يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا قال إذاً يتكلوا فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً: أي مخافة من الإثم في كتمان هذا العلم» وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى» وقال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه «اذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة» وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه «يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فقلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا» وقال صلى الله عليه وسلم «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى - يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة -» وقال عليه الصلاة والسلام «أتاني جبريل، فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله دخل الجنة قلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى؟ قال نعم، قلت وإن سرق وإن زنى، قال نعم، قلت وإن سرق وإن زنى، قال نعم وإن شرب الخمر»، وقال عليه الصلاة والسلام «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً» وقال عليه الصلاة والسلام «قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»، وحديث «الرجل من هذه الأمة الذي يصاح به فتنشر له تسعة وتسعون سجلاً من الخطايا كل سجل مد البصر فتطرح في كفة الميزان فيقول الله تعالى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فيقول الرجل ما هذه البطاقة في جنب هذه السجلات فيقول الله تبارك وتعالى إنك لا تظلم فتطرح البطاقة في الكفة الأخرى فيرجح بها الميزان وتطيش تلك السجلات، قال عليه الصلاة والسلام: ولا يثقل مع اسم الله شيء» حديث مشهور، وبلغنا أن رجلاً كان بعرفات وقت الحج وإنه أخذ سبع حصيات فأشهدها أنه يشهد أن

لا إله الا الله فرؤي بعد ذلك في النوم أنه وقف بين يدى الله للحساب وأنه حوسب وأمر به إلى النار فاجيء به إلى باب من أبوابها الارجاء محجر فسد ذلك الباب وقيل له أن هذه هي الاحجار التي أشهدتها بأنك تشهد أن لا إله الا الله ثم أمر به إلى الجنة فجاءت لا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة بفضل الله ورحمته والحمد لله رب العالمين .

خاتمة الكتاب

في مواعظ ومذكرات يستيقظ بها المعرض الغافل ويتذكر بها اللبيب العاقل ان شاء الله تعالى

تشتمل على آيات من كتاب الله وأحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعلى آثار تؤثر عن الصحابة والتابعين وعن العلماء العاملين وعباد الله الصالحين

قال الله تبارك وتعالى لرسوله الأمين ـ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وقال تعالى ـ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ وقال تعالى ـ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا ـ وقال تعالى ـ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم واعظين ناطق وصامت فأما الناطق فكتاب الله ، وأما الصامت فالموت » وقال العرباض بن سارية رضي الله عنه « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي ، وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة ضلالة » وقال عليه الصلاة والسلام « كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون من بعدهم ، قد نسينا كل موعظة وأمنا كل جائحة » وقال عليه الصلاة والسلام « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا ان سلعة الله غالية ، ألا ان سلعة الله الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له » وقال عليه الصلاة والسلام « إن روح القدس نفث في روعي : عش ما شئت فانك ميت ، وأحبب من أحببت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فانك مجزي به » وقال عليه الصلاة والسلام « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور » وقال عليه الصلاة والسلام « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » وقال عليه الصلاة والسلام « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض يسير من الدنيا » وقال عليه الصلاة والسلام « كفى بالموت واعظا وكفى باليقين غنى وكفى بالعبادة شغلا » وقال عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله » ، والصعدات هي الطرق ، وتجأرون : أي تتضرعون ، وقال عليه الصلاة والسلام « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » وقال عليه الصلاة والسلام « استحيوا من الله حق الحياء ، فقالوا إنا نستحي والحمد لله ، فقال عليه الصلاة والسلام : من استحيا من الله حق الحياء حفظ الرأس وما وعى

الحكايات

وحفظ البطن وما حوى وذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، ومن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » وقال عليه الصلاة والسلام « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة » وقال عليه الصلاة والسلام « بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » وقال عليه الصلاة والسلام « أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد » وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر رضي الله عنه « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » وقال عليه الصلاة والسلام « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » وقال عليه الصلاة والسلام « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله » وقال عليه الصلاة والسلام « يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأقنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له » وقال عليه الصلاة والسلام « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن عمله ماذا عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وعن جسمه فيم أبلاه » وقال عليه الصلاة والسلام « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وقال عليه الصلاة والسلام « كل آت قريب والبعيد ما ليس بآت » وقال عليه الصلاة والسلام « ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما استخلف : إني قد وليت أمركم ولست بخيركم وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه فإذا أحسنت فأعينوني وإذا رأيتموني زغت فقوموني ، وقال رضي الله عنه : من مقت نفسه في ذات الله عز وجل آمنه الله من مقته ، وعن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما أنها قالت لأبيها : يا أمير المؤمنين ما عليك لو لبست ثوبا ألين من ثوبك هذا أو أكلت طعاما غير هذا وقد فتح الله عليك الأرض وأوسع لك الرزق ، فقال إني سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة العيش فما زال يذكرها حتى أبكاها ، ثم قال قلت لك إنه كان لي صاحبان سلكا طريقا وإني إن سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما وإني والله لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي ، يعني بصاحبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وعن أنس رضي الله عنه قال : لما قتل البغاة المعتدون عثمان بن عفان رضي الله عنه دخلوا خزانته فوجدوا فيها صندوقا فقالوا هذا ما احتازه من فيء المسلمين فكسروه فوجدوا فيه حقة فقالوا فيها جواهر فكسروها فوجدوا فيها ورقة مكتوب فيها عثمان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور عليها نحيا وعليها نموت ، ووجدوا في ظهرها مكتوب

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها ۞ وإن مسها حتى يضر بها الفقر

فما عسرة فاصبر لها إن لقيتها ۞ بكائنة إلا ومن بعدها يسر

قال فلتسقط في أيدي القوم ، وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح : ماذا قال عثمان وهو يتشحط في الموت ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال : والذي نفسي بيده لو قال لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله ولا خير في الدنيا

إلا لأحد رجلين رجل أذنب ذنباً فهو يتدارك ذلك ، ورجل يسارع في الخير ، وقال رضي الله عنه : احفظوا عني خمساً فلو ركبتم الابل في طلبهن لا نضيتموهن قبل أن تدركوهن لا يرجو عبد الا ربه ولا يخاف الا ذنبه ولا يستحي جاهل أن يسأل ولا يستحي عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا ايمان لمن لا صبر له ، وقال رضي الله عنه : التقوى ترك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة ، وقال رضي الله عنه : أشد الأعمال ثلاثة اعطاء الحق من نفسك وذكر الله تعالى على كل حال ومواساة الأخ بالمال ، وقال ضرار بن ضمرة الكناني رحمه الله في وصفه حين وصفه لمعاوية : وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتململ في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وكأني أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا يتضرع اليه يقول : يا دنيا الي تعرضت أم الي تشوقت هيهات هيهات غري غيري طلقتك ثلاثاً لا راجعة فيها فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كثير آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . قال فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل قد نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون » ومرض خباب بن الأرت رضي الله عنه فعاده نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقالوا أبشر يا أبا عبد الله اخوانك تقدم عليهم غداً فبكى ، وقال أما إنه ليس بي جزع ولكن ذكرتموني أقواماً وسميتم لي إخواناً ، وان أولئك مضوا بأجورهم كما هي واني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتيناه من بعدهم بعد من أمور الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : حبذا المكروهان الموت والفقر ، وايم الله ان هو الا الغنى والفقر ما أبالي بأيهما بليت ان حق الله في كل واحد منهما واجب أن كان الغنى ان فيه العطف وان كان الفقر ان فيه الصبر . وقال وما أبالي اذا رجعت الى أهلي على أي حال أراهم بسراء أم بضراء وما أصبحت على حالة فتمنيت أني على سواها . وقال ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له لم ذلك ؟ قال لأنه يرضيه بما يسخط الله تعالى . وقال الامام الغزالي رحمه الله تعالى : وذلك لأن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله وإما بسكوته وإما باعتقاده ولا ينفك عن أحد هذه الأمور ، وكان عمار بن ياسر رضي الله عنهما طويل الصمت طويل الحزن والبكاء ، وكان عامة كلامه عياذاً بالله من الفتنة ، ولما بنى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه داره قال لعمار رضي الله عنه : هلم انظر الى ما بنيت فانطلق عمار فنظر اليه فقال بنيت شديداً وأملت بعيداً وتموت قريباً ، ودخل معاذ بن جبل رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له كيف أصبحت يا معاذ ؟ فقال أصبحت بالله مؤمناً ، فقال ان لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول ؟ فقال يا رسول الله ما أصبحت صباحاً قط الا ظننت أني لا أمسي ولا أمسيت مساء قط الا ظننت أني لا أصبح ولا خطوت خطوة قط الا ظننت أني لا أتبعها أخرى وكأني انظر الى كل أمة جاثية تدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله عز وجل وكأني أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، فقال ﷺ قد عرفت فالزم » ، وقال عتبة بن غزوان في خطبته بالبصرة : ان الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ، ولم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء يتصابها صاحبها وانكم منتقلون منها الى دار قرار فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، ولقد بلغني أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، ولقد بلغني ان صخرة لو هوت من شفير جهنم لهوت سبعين خريفاً أفعجبتم ؟ ولقد رأيتني وسعد بن مالك واني لسابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام الا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا وأصبت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فما من أولئك

السبعة الأمير على مصر، ألا وإنكم ستجربون الأمراء بعدي. وفي رواية إني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وفي أعين الناس صغيرا وستجربون الأمراء بعدي؛ قال الحسن فجربناهم فوجدناهم أنتانا، سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني: فراق محمد سيد الأولين والآخرين وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الله عزوجل ولا أدري ينصرف بي إلى الجنة أم إلى النار. وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ان الرجل ليدخل المدخل الذي يجب عليه أن يتكلم فيه لله تعالى فلا يتكلم فلا يعود قلبه إلى ما كان عليه أبدا. وقال: ليأتين على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغريق. وقال رجل لأبي الدرداء رضي الله عنه: أوصني، فقال اذكر الله عزوجل في السراء يذكرك في الضراء، وإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير. وقال رضي الله عنه: حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يعيبون سهر الحمقاء وصيامهم، ولذرة من ذي يقين وتقوى من البر خير من أمثال الجبال من أعمال المغترين، ولما مات زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما وجدوه يعول مائة أهل بيت، وكان إذا أقرض قرضا لم يستعد وإذا أعار ثوبا لم يرجعه وإذا وعد إنسانا لم يأكل ولا يشرب حتى يوفي بوعده وإذا مشى في حاجة فوقعت قضاها من ماله، وكان يحج ويغزو ولا يضرب راحلته، وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وقال الباقر محمد بن علي رضي الله عنهما: ما الدنيا وما عسى أن تكون، هل هو إلا ثوب لبسته أو مركب ركبته أو امرأة أصبتها. وقال رحمه الله، كان لي صاحب وكان عظيما في عيني وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وقال رحمه الله لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا وإذا ضجرت لم تصبر على حق، وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لجعفر الصادق رضي الله عنه حدثنا، فقال إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها فأكثر من الحمد والشكر عليها لله عزوجل قال الله تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار قال الله تعالى - واستغفروا ربكم إنه كان غفارا - وإذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة. وقال رضي الله عنه عجبت لمن أعجب بأمر نفسه كيف لا يقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله والله يقول - ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله - وعجبت لمن خاف قوما، كيف لا يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول - الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم - إلى قوله تعالى - لم يمسسهم سوء -، وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول - وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد - إلى قوله تعالى - فوقاه الله سيئات ما مكروا -، وعجبت لمن أصابه غم: كيف لا يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين - إلى قوله تعالى - فنجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين - وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أوصني، فقال أوصيك بتقوى الله عزوجل التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، وقال رحمه الله في خطبته: أما بعد فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين وسيتركها الباقون كما تركها الماضون، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا إلى الله تعالى وتضعونه في صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب فقير لما قدم أمامه غني عما ترك بعده، أما والله إني لا أقول لكم هذا وما أعرف من أحد من الناس مثل ما أعرف من نفسي. ثم قال بطرف ثوبه على عينيه هكذا وبكى فكانت هذه آخر خطبة خطبها. وقال الحسن البصري رحمه الله: إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عزوجل وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما يشق الحساب على قوم أخذوا هذا

الأمر من غير محاسبة إن المؤمن يفجؤه الشئ يعجبه ، فيقول والله إنى لأحبك وإنى محتاج إليك ولكن والله
مامن صلة إليك وهيهات حيل بينى وبينك ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت بهذا مالى ولهذا
والله لا أعود إلى مثل هذا أبداً إن شاء الله تعالى وإن المؤمنين قد أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ،
وإن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله تعالى يعلم أنه مأخوذ عليه فى
سمعه وبصره ولسانه وجوارحه . وقال رحمه الله إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو
فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك فتصلحه ، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم
تصلحه ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله تعالى من كان كذلك ، وما سمع الخلائق
يوم قط أكثر عورة بادية ولا عين باكية من يوم القيامة . وقال رحمه الله : ويحك يابن آدم هل لك بمحاربة
الله طاقة ، إنه من عصى الله فقد حاربه ، والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف لو رأيتموهم قلتم
مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب ،
والله لقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدمه ، ولقد رأيت أقواماً يمسى
أحدهم ولا يجد عنده إلا قوته ، فيقول لا أجعل هذا كله فى بطنى لأجعلن بعضه لله فيتصدق ببعضه وإن
كان هو أحوج إليه ممن يتصدق به عليه ، وقال ثابت البنانى رحمه الله : إن أهل ذكر الله عز وجل يجلسون
لذكر الله تعالى وعليهم من الآثام مثل الجبال ، فإذا ذكروا الله تعالى يقومون من مجلسهم بعد ذكر
الله عطلاً من الذنوب ما عليهم منها شئ ، وقال رحمه الله : إذا وضع المؤمن فى قبره احتوشته له أعماله ،
وقال : إن المؤمن إذا بعث من قبره تلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا يقولان له لا تخف ولا تحزن
وابشر بالجنة التى كنت توعد ، وقال الربيع بن خيثم رحمه الله : أعد زادك وجد فى جهازك وكن وصى
نفسك ، وقال : إن الناس خافوا الله فى ذنوب الناس وأمنوا منه سبحانه وتعالى على ذنوبهم ، ولما أصابه
الفالج قيل له : لو تداويت ، فقال : قد عرفت أن الدواء حق ، ولكنى ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس
وقروناً بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع وكانت لهم الأطباء فما بقى المداوى ولا المداوى . وقال مالك بن
دينار رحمه الله : ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله سبحانه وتعالى ، وقال : إن الصديقين إذا قرئ عليهم
القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة ، وقال لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى
إلى منازل الكلاب وقال : نظرت فى أصل كل إثم فوجدته حب الدنيا فمن ألقى حبها استراح ، وقال : رأيت فى
بعض الكتب أن الله عز وجل يقول : « إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة
ذكرى من قلبه » وقال : إذا لم يكن فى القلب حزن خرب كما إذا لم يكن فى البيت ساكن فإنه يخرب
وقال سفيان الثورى رحمه الله : الأعمال السيئة داء والعلماء دواء ، فإذا فسد العلماء فمن يشفى الداء ،
وقال : العالم طبيب الدين ، والدرهم داء الدين ، فإذا جر الطبيب الداء إلى نفسه فمتى يداوى غيره ، وكان يقول
ما أطاق أحد العبادة ولا قوى عليها إلا بشدة الخوف ، وقال إنما يطلب العلم ليتقى الله به ، فمن ثم فضل ولولا
ذلك لكان كسائر الأشياء ، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : وجدت الخلوة أصلح لقلبى ، وقال : العافية
عشرة أجزاء كلها فى التغافل ، وقال له ولده عبد الله وهو صبى يا أبتى هب لى قطعة ، فقال أبوك ما يملك قطعة
ويوم لا يملك فيه قطعة أحب إليه من يوم يملك فيه قطعة ، والقطعة شئ قليل جداً من الفضة . وقال إبراهيم
ابن أدهم رحمه الله تعالى : اتخذ الله صاحباً ، وذر الناس جانباً ، وقال رحمه الله أيضاً : من عرف ما يطلب هان
عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن طال أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وقال
رحمه الله : ما أصدق الله عبد أحب الشهرة ، وقال رجل لداود الطائى أوصنى ، فقال له صم عن الدنيا واجعل
فطرك الموت ، وفر من الناس كما تفر من الأسد ، وكان سفيان الثورى رحمه الله يقول : اللهم سلم سلم ، وكان داود

الطائي يقول : اللهم خلّص خلّص ، ويقول إنما يسأل السلامة من لم يقع ، وأما من وقع فإنما يسأل الخلاص ، وسئل ابن المبارك رحمه الله تعالى من الناس ؟ قال العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل : فمن السفلة ؟ قال الذي يأكل بدينه ، وقال رحمه الله : العجب أن ترى عندك شيئاً ليس عند غيرك ، والكبر أن تزدري الناس ، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة ، وقال رحمه الله : لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال ، وقال رحمه الله : التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبل الحق من كل من تسمعه منه ، وقال : أبى الله أن لا يجعل أرزاق المتقين إلا من حيث لا يحتسبون ، وقال أبو عبد الله خادم محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله : دخلت على محمد ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور ، فقال يا أبا عبد الله تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير ، وقد نزل بي الموت ، وقد منّ الله علي أنه ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه ، وقد علم الله ضعفي وأني لا أطيق الحساب فلم يدع عندي شيئاً يحاسبني عليه ثم قال أغلق الباب ولا تأذن علي لأحد حتى أموت ، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ منه وكتبي هذه لا تكلف الناس مؤونة ، وكانت معه صرة فيها ثلاثون درهماً ، فقال هذا لابني أهداه له قريب له ، ولا أعلم شيئاً أحل لي منه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنت ومالك لأبيك ، وقال : أطيب ما أكل الرجل من كسبه وولده من كسبه ، كفنوني منه ، فإن أصبتم بعشرة دراهم ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر وابسطوا على جنازتي لبدي وغطوا على جنازتي كسائي وتصدقوا بإنائي أعطوه مسكيناً يتوضأ منه ، ثم مات اليوم الرابع فعجبت أن قال ذلك بيني وبينه ، فلما خرجت جنازته جعلن النساء يقلن من فوق السطوح : يا أيها الناس هذا العالم الذي خرج من الدنيا ، وهذا ميراثه الذي على جنازته ليس مثل علمائنا هؤلاء الذين هم عبيد بطونهم يجلس أحدهم للعلم سنتين أو ثلاثاً فيشتري الضياع ويستفيد المال ، وقال معروف الكرخي رحمه الله لرجل : توكل على الله حتى يكون هو معك وأنيسك وموضع شكواك ، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك ، واعلم أن شفاء كل بلاء نزل بك كتمانه ، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يمنعونك . وقال معروف : إنما الدنيا قدر يغلي وكنيف يملأ ويرمى به ، وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه أبواب العمل وأغلق عليه أبواب الجدل ، وقال : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل ، وجاء حجام يأخذ من شارب معروف وهو يسبح فقال الحجام لا يمكن أخذ الشارب وأنت تسبح ، فقال أنت تعمل وأنا لا أعمل . وقال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله تعالى : فقدنا ثلاثة أشياء لا نجدها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وقال : من زين باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة لقوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وقال : إذا أنت لا تسمع نداء الله عز وجل كيف تجيب داعي الله تعالى ، وقال بشر بن الحارث رحمه الله : يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم ، ويأتي على الناس زمان تكون فيه الدولة للحمقاء على الأكياس ، وقال رحمه الله : إنك لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد ، وقال الحسن المسوحي : رأيت بشر بن الحارث يوماً وأنا أرتعد من البرد فنظر إلي وقال :

قطع الليالي مع الأيام في خلق ... والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بي من أن يقال غداً ... إني التمست الغنى من كف مختلق
قالوا قنعت بذا قلت القنوع رضا ... ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله في عسر وفي يسر ... فلست أسلك إلا أوضح الطرق

وقال السري السقطي رحمه الله : من أراد أن يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس

لأن هذا زمان عزلة ووحدة ، وقال : من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم ، وقال : قليل في سنة خير من كثير في بدعة ، وكيف يقل عمل مع تقوى ، وقال ابن أبي الورد دخلت يوما على السري ، وهو يبكي ودورقه مكسور ، فقلت له مالك ؟ فقال انكسر الدورق ، فقلت له أنا أشتري لك بدله ، فقال له من أين تشتري لي بدله وأنا أعرف الدانق الذي اشترى به الدورق ومن عمله ومن أين أخذ طينته وأي شيء أكل عامله حتى فرغ من عمله ؟ . وسئل ذو النون المصري عن المحبة . فقال أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله وترفض ما يشغلك عن الله ، وأن لا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين ، والغلظة للكافرين واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين ، وقال رحمه الله : قال تعالى : من كان لي مطيعا كنت له وليا فليثق بي وليحكم علي فوعزتي وجلالي لو سألني زوال الدنيا لأزلتها ، وقال رحمه الله كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا ، وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب اليوم الرجل بعلمه مالا ، وكان يرى على طلب العلم زيادة في باطنه وظاهره فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر ، وقال : الأنس بالله نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع ، وقال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله : ان الله عز وجل قال لآدم عليه الصلاة والسلام يا آدم أنا الله لا إله إلا أنا فمن رجا غير فضلي وخاف غير عدلي لم يعرفني ، وقال سهل : البلوى من الله عز وجل على وجهين : بلوى رحمة وبلوى عقوبة فبلوى الرحمة تبعث صاحبها على اظهار فقره وفاقته الى الله سبحانه وتعالى وترك تدبير نفسه واختيارها ، وبلوى العقوبة تبعث صاحبها على اختيارات نفسه وتدبيرها ، وقال سهل : استحث حلاوة الزهد بقصر الأمل واقطع أسباب الطمع بصحة اليأس وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر ، وتزين لله عز وجل بالصدق في الأحوال كلها وإياك والتسويف فإن التسويف يغرق الهلكى ، وإياك والغفلة ، فإن فيها سواد القلب ، واستجلب زيادة النعم بعظم الشكر ولست بالغا منه شيئا ، وقال سهل : الغضب أشد على البدن من المرض لأنه اذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل من المرض ، ولهذا قال ﷺ « لا تغضب » وكرر مرارا ، وقال سهل : يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم وتكون أموالهم من غير حلها فيسلط الله بعضهم على بعض فتذهب لذة عيشهم ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا وخوف شماتة الأعداء ولا يجد لذة العيش الا عبيدهم ومماليكهم ويكون ساداتهم في بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين ولا يستلذ بعيش يومئذ الا المنافق لا يبالي من أين أخذ وفيما أنفق ولا كيف أهلك نفسه ؟ وحينئذ تكون رتبة القراء رتبة الجهال وعيشهم عيش الفجار وموتهم موت أهل الحسرة والضلال ، وقال الجنيد بن محمد رحمه الله : البلاء سراج العارفين ، ويقظة المريدين ، وهلاك الغافلين ، وسئل الجنيد عن الشفقة ؟ فقال أن تعطي الناس من نفسك ما يطلبونه ولا تحملهم ما لا يطيقون ولا تخاطبهم بما لا يعلمون ، وقال اذا صحت المودة سقطت شروط الأدب ، وقال يا معشر الشباب جدوا قبل أن تعجزوا ، واجهدوا قبل أن تطلبوا أثرا بعد عين فاني تذكرت مجاهدات كانت لي تقبح في عيني بطالتي اليوم . قال منصور بن حلي : وكانت حالته اذ ذاك من أعظم أنواع المجاهدات ، وقال الحسن البصري رحمه الله : الناس في هذه الدنيا على خمسة أصناف : العلماء هم ورثة الانبياء والزهاد هم الأدلاء والقراء هم أسياف الله والتجار هم أمناء الله والملوك هم رعاة الخلق ، فاذا أصبح العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى ، واذا أصبح الزاهد راغبا فبمن يستدل ويهتدى ، واذا أصبح الغازي مرائيا والمرائي لا عمل له فبمن يظفر بالعدا ، واذا كان التاجر خائنا فبمن يؤمن ويرتضي ، واذا أصبح الملك ذئبا فمن يحفظ الغنم ويرعى ؟ فوالله ما أهلك الناس الا العلماء المداهنون والزهاد الراغبون ، والغزاة المراءون ، والتجار الخائنون ، والملوك الظالمون - وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون - وأنشد الشيخ الصالح عبد العزيز الديريني رحمه الله لنفسه في هذا المعنى

إذا مات ذو علم وتقوى فقد ثلمت من الإسلام ثلمه
وموت العابد المرضى نقص ففى مرآه للأسرار نسمه
وموت العادل الملك المولى بحكم الحق منقصة وقصمه
وموت الفارس الضرغام هدم فكم شهدت له بالنصر عزمه
وموت فتى كثير الجود محل فإن بقاءه خصب ونعمه
فحسبك خمسة يبكى عليهم وموت الغير تخفيف ورحمه

رُوِىَ أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من إياد فسألهم عن قس بن ساعدة ، فقالوا هلك فقال رحمه الله كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا فإن من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ، أما بعد فإن فى السماء الخبر ، وفى الأرض العبر أعز بحور ، ونجوم تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قس بالله قسماً إن لله ديناً أرضى من دين أنتم عليه ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، سبيل مؤتلف وعمل مختلف ، قال أبياتاً لا أحفظها ، قال أبو بكر رضى الله عنه أنا أحفظها يا رسول الله ، فقال هاتها ، فقال :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىَّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله قساً إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة واحدة » .

ولنختم هذه الخاتمة المباركة بالأحاديث التى ختمت بها الكتب السبعة التى هى أصول الدين والإسلام وأمهات الشريعة والأحكام تبركاً وتيامنا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاؤلاً ورجياً من الله حسن الختام ،

وهى : كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رحمه الله ، وكتاب الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخارى رحمه الله ، وكتاب الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى رحمه الله تعالى ، وكتاب السنن لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى رحمه الله ، وكتاب الجامع للإمام أبى عيسى محمد بن سورة الترمذى رحمه الله ، وكتاب السنن للإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى رحمه الله ، وكتاب السنن للإمام محمد بن يزيد بن ماجة رحمه الله ، وقد اجتمعت هذه الكتب المعظمة عندنا والحمد لله ، وذلك من فضل الله ومنته لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه غير أن الذى صار إلينا من سنن النسائى هو المجتبى من السنن الكبيرة له .

خاتمة كتاب الموطأ ، عن محمد بن جبير بن مطعم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

خاتمة صحيح البخارى ، عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

خاتمة صحيح مسلم ، عن قيس بن عبادة ، قال سمعت أبا ذر يقسم قسماً إن « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » أنها نزلت فى الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث رضى الله عنهم أجمعين وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

خاتمة سنن أبى داود ، عن وهب بن منبه عن أخيه عن معاوية رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم «اشفعوا تؤجروا فاني لأريد الأمر أؤخره كيما تشفعوا فتؤجروا».

خاتمة جامع الترمذي، عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «قد أذهب الله عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي والناس بنو آدم وآدم من تراب». هذا حديث حسن

وعن المغيرة بن أبي قرة السدوسي. قال سمعت أنسا رضي الله عنه، قال «قال رجل يارسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال اعقلها وتوكل».

خاتمة سنن النسائي. عن الشعبي عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان اذا خرج من بيته قال: بسم ربي أعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي».

خاتمة سنن ابن ماجه، عن يزيد بن مريم عن أنس رحمه الله. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار اللهم أجره من النار»، وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد الا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار. فاذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قول الله تعالى - أولئك هم الوارثون -».

تمت خواتم هذه الكتب الشريفة من الأحاديث النبوية المنيفة، وبتمامها يتم الكتاب، والله الهادي الى الحق والصواب، ونسأله حسن الختام وحسن المآب، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قال مؤلفه

وكان الفراغ من تأليفه بعون الله وتيسيره بكرة يوم الجمعة السابع أو الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة أربع عشرة ومائة وألف من الهجرة النبوة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وعلى آله الطاهرين وأصحابه الأكرمين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين آمين.

[تم كتاب الدعوة التامة، والتذكرة العامة]

ويليه:

[رسالة المذاكرة للمؤلف]

رسالة المذاكرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق الانسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، وأخرج المؤمنين المواصين بالحق والصبر من زمرة الخاسرين ، باستثنائه إياهم بعد أن عم بالخسران نوع الانسان الذى هو سائر الآدميين ، وأمر عباده الذين آمنوا بالتعاون على البر والتقوى ، وأخبرهم أن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنه ولى المتقين ، وأنه ماخلق الجن والانس إلا ليعبدوه لا ليعمروا الدنيا ويجمعوا الأموال ، بل قد حذرهم ذلك على لسان رسوله الأمين القائل « ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين ، ولكن أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فهذا سعادة كل أحد وكماله فى التزام الأمر الذى لأجله خلق ، والتفرغ له بقطع مايمنع منه ويصد عنه من ترهات الحمقاء المغرورين ، وتمويهات الأغبياء البطالين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين . الذى أرسله رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم باحسان الى يوم الدين .

[أما بعد] فان جماع الخير وملاكه تقوى الله فى السر والعلانية فى الغيب والشهادة ، والتقوى هى الخصلة التى تجمع لصاحبها خير الدنيا والآخرة ، ولعظم موقعها من الدين ، وجلالة قدرها عند العلماء الراسخين ، صدروا بها الخطب والمواعظ والوصايا ، ولكونها جامعة للخير كله اكتفى بذكرها فى الوصية الواجبة فى الخطبة ، وكثيرا مايقتصر عليها الأكابر فى وصية من استوصاهم ، والتقوى وصية الله رب العالمين للأولين والآخرين . قال الله تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وفى الأمر بالتقوى - قال الله تعالى - يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة - الآية ، وقال سبحانه وتعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا - وقال عز وجل - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته - وقال تعالى - فاتقوا الله ما استطعتم - أى استفرغوا الطاقة والامكان فى ذلك - لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها - والآيات فى الأمر بالتقوى كثيرة ، وقد جمع الله للمتقين خيرات الدنيا والآخرة ، فمن ذلك المخرج من الشدة ، والرزق من حيث لا يحتسبون . قال الله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - ومن ذلك الهدى . قال الله تعالى - ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين - ومنها العلم . قال الله تعالى - واتقوا الله ويعلمكم الله - ومنها الفرقان والكفارة للسيئات والمغفرة للذنوب . قال الله سبحانه وتعالى - ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (١) ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم - قال بعض المفسرين : يجعل لكم فرقانا هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ، ومنها

(١) بيضا بيدااكى اى بين الحق والباطل

الولاية . قال الله تعالى - والله ولي المتقين - ومنها المعية . قال الله سبحانه وتعالى - واعلموا أن الله مع المتقين - أي بالنصر والرعاية والحراسة ، ومنها النجاة . قال الله سبحانه وتعالى - ثم ننجي الذين اتقوا - ومنها الوعد بالجنة . قال عز من قائل - تلك الجنة التي وعد المتقون - إن المتقين عند ربهم جنات النعيم ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد - إلى غير ذلك من الخيرات الجليلة ، والفضائل الجليلة ، والمواهب الجزيلة ، ويكفي في شرف التقوى أن الله ذكره في أكثر من سبعين موضعا من كتابه . وفي الأمر بالتقوى وفضيلته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال عليه الصلاة والسلام « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي » الحديث ، وقال عليه الصلاة والسلام « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » وقال عليه الصلاة والسلام « لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بتقوى الله ، أنتم من آدم وآدم من تراب . وقيل يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال أتقاهم » الحديث ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي » وقالت عائشة رضي الله عنها : ما أعجب رسول الله شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد إلا أن يكون ذا تقى . وقال علي كرم الله وجهه : إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ، ومعنى يهيج يهلك ، وقال قتادة : مكتوب في التوراة : اتق الله ومت حيث شئت ، وقال الأعمش : من كان رأس ماله التقوى سلمت الألسنة عن وصف ربحه ، وكان بشر الحافي ينشد :

يموت التقي حياة لا انقضاء لها ... قد مات قوم وهم في الناس أحياء

وفضل التقوى والمتقين أكثر من أن يحصر ، وقد بسط الكلام في التقوى الإمام الغزالي في منهاجه ، وقد لخصنا من كلامه بعض ما ذكرناه .

[فصل] قال الإمام الغزالي : التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة معان . أحدها بمعنى الخشية والهيبة . والثاني بمعنى الطاعة والعبادة . والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب ، وهذا هو الحقيقة . انتهى مختصرا وعلى الجملة . فالتقوى عبارة عن اتقاء سخط الله وعقابه بامتثال ما به أمر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وحقيقة التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

[فصل] وقد علمت أولو القلوب السليمة والعقول المستقيمة أنهم يجزون ما يعملون ويحصدون ما يزرعون وكما يدينون يدانون ، وعلى ما قدموه يقدمون ، وكيف لا يعلمون ذلك ويوقنون بما هنالك وهم يسمعون ما به يؤمنون ويصدقون من تنزيل الله المحكم وحديث نبيه صلى الله عليه وسلم ما يوجب العلم واليقين القطعي لمن نور الله قلبه وشرح صدره ، فأحضر قلبك واصغ بأذنك إلى طرف من ذلك لعلك بسماعه تستيقظ من غفلتك وتتنبه من نومتك فتعمل لنفسك صالحا تنجو به - يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم - قال الله تعالى - ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى - وقال تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى - وقال تعالى - ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا - وقال تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - وقال تعالى - من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد - وقال تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد - وقال تعالى - واتقوا يوما ترجعون فيه

إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون — ويقال إن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى : عش ما شئت فانك ميت وأحبب ما أحببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به » وقال عليه الصلاة والسلام « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يفنى كما تدين تدان » وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه « ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وقال عليه الصلاة والسلام « لا تسبوا الموتى فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » وورد « أن العبد قد يرفع على سيده فى درجات الجنة ، فيقول السيد : أى رب هذا كان عبدى فى الدنيا ، فيقول سبحانه إنما جزيته بعمله » ، وقال على كرم الله وجهه : الدنيا دار عمل ولا جزاء فيها ، والآخرة جزاء ولا عمل ، فاعملوا فى دار لا جزاء فيها لدار لا عمل فيها ، وقال الحسن البصرى رحمه الله : يقول الله لأهل الجنة ادخلوا الجنة برحمتى واخلدوا فيها بنياتكم الصالحة واقتسموها بأعمالكم ، وما ذكرته من الأدلة على وقوع المجازاة أردت به التنبيه وإلا فهو أمر معلوم للخاص والعام ، معروف لا يكاد يخفى منه شىء على أقل الأغبياء من العوام .

[فصل] وقد جعل الله بمشيئته رضاه فى طاعته وسخطه فى معصيته ووعد من أطاعه دخول جنته برحمته وأوعد من عصاه دخول ناره بعدله وحكمته فقال تعالى — تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين — وقد أمر سبحانه عباده الذين آمنوا بالمسارعة الى مغفرته وجنته وأن يقوا أنفسهم وأهليهم نارا بامتثال أمره واجتناب معصيته فقال تعالى — وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين — وقال تعالى — ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون —

[فصل] فى ذكر شىء مما يكرم الله به من أطاعه وعمل الصالحات لوجهه . قال الله تعالى — من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة — الآية : وقال سبحانه وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . وقال تعالى — ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا — وقال تعالى — ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا — . قال ابن عباس رضى الله عنهما يحبهم ويحببهم الى المؤمنين ، وقال رسول الله ﷺ : ان الله تعالى قال « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وان سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » أكرم الله بهذه المحبة العظيمة التى تصير معها حركات العبد وسكناته كلها بالله لمن قام من أداء ما افترضه عليه ، وأكثر من نوافل الطاعات تقربا اليه . وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن الله « اذا تقرب الى عبدى شبرا تقربت اليه ذراعا واذا تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا واذا أتى يمشى أتيته هرولة » فتقرب العبد الى ربه بطاعته وخدمته ، وتقرب الرب من عبده بفضله ورحمته . وقال عليه الصلاة والسلام فيما يحكى عن ربه « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وفى الزبور : ابن آدم أطعنى أملأ قلبك غنى ، ويديك رزقا ، وجسمك صحة وأوحى الله الى الدنيا : يا دنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بشر بن الحارث رحمه الله : ذهب أهل الخير بالدنيا

والآخرة. وقال يحيى بن معاذ: أبناء الدنيا تخدمهم العبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار: فإن أردت يا أخي أن يكون لك عز لا ينقضي وسؤدد لا ينقطع وشرف لا يذهب ومجد لا يبلى فأطع ربك فإن الله قد جعل ذلك كله في طاعته يكرم به من أطاعه من عباده، وقد أكرم الله عبادا أطاعوه فحررهم من رق الشهوات وطهر قلوبهم من دنس الالتفات الى الفانيات وأجرى على أيديهم خوارق العادات وعجائب الكرامات من الأخبار والغيبيات وادرار البركات وإجابة الدعوات فأصبح الناس يقتبسون من أنوارهم ويقتدون بآثارهم ويتوجهون بهم الى الله في كشف مهماتهم ويسألونه بحقهم في دفع ملماتهم ويستشفون بمواطئ أقدامهم وبتربة ضرائحهم، وقد أكرمهم سبحانه بما هو أعلى مما هنالك وأعطاهم ما هو أجل من ذلك فقذف في قلوبهم من نوره وحشاها من خالص معرفته ومحبته وآنسهم في خلواتهم بذكره فاستوحشوا من خلقه وأعد لهم النعيم المقيم في جنات النعيم، ووعدهم النظر الى وجهه الكريم، ورضاه عنهم أكبر ذلك هو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون.

[فصل] في ذكر شيء مما يترتب على المعصية من الخزي والدمار والهوان والوبال في الدنيا والآخرة

قال الله تعالى - إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. وقال تعالى - أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون - ومعنى يسبقونا يعجزونا ويفوتونا. وقال تعالى - ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». وقال عليه الصلاة والسلام وإذا أذنب العبد ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه وان عاد زاد ذلك حتى يسود قلبه فذلك قوله تعالى - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون - » وقال عليه الصلاة والسلام «قسوة القلب من كثرة الذنوب» وقال صلى الله عليه وسلم «ان العبد ليحرم الرزق لذنب يصيبه» الحديث، وأوحى الله الى موسى: يا موسى أول من مات من خلقي ابليس لعنه الله لأنه أول من عصاني ومن عصاني كتبته ميتا. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: ما أكرمت العباد نفسها بمثل طاعة الله ولا أهانتها بمثل معصية الله ويكفي المؤمن من نصر الله له أن يرى عدوه يعمل بالمعاصي. وقال محمد بن واسع: الذنب على الذنب يميت القلب. وقال بعض السلف: ان كنت تعصي الله وأنت ترى أنه يراك فأنت مستهزئ بنظر الله، وان كنت تعصيه وترى انه لا يراك فأنت كافر، وقيل لوهيب بن الورد هل يجد لذة العبادة من يعصي الله، قال لا، ولا من يهم بالمعصية، وكان السلف الصالح يقولون: المعاصي بريد الكفر: أي رسوله، وعلى الجملة فعلامة السقوط من عين الله والسكون في مقت الله العمل بمعصية الله، فالمصر عليها مقيت الرحمن وولي الشيطان وبغيض أهل الايمان، فإياك يا أخي والتعرض لسخط الله وعقابه بارتكاب معصيته، ومهما دعتك نفسك الى ارتكابها فذكرها باطلاع الله عليك ونظره اليك وخوفها بما توعد الله من عصاه من أليم العذاب وعظيم العقاب، ولو لم يكن في ارتكابها الا فوات منازل السابقين وحرمان ثواب المحسنين لكان كافيا، كيف وفي ارتكابها العار والنار وسخط الجبار وغضبه الذي لا تقوم له السموات والأرض نسأل الله العافية بمنه.

[فصل] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» فاذا وفقك الله أيها المؤمن للعمل بطاعته فليعظم فرحك بذلك البالغ في شكر الذي أكرمك بخدمته واختارك لمعاملته واسأله أن يقبل منك بفضله ما يسر. عليك من صالح العمل. قال علي كرم الله وجهه: كونوا بقبول العمل أهم منكم بالعمل فانه لا يقل عمل متقبول، ولا تزال معترفا بتقصيرك عن القيام بواجب حق ربك عليك وان عظم في طاعته جدك وتشميرك فان حقه عليك عظيم: أوجدك من العدم وأسبغ عليك النعم وعاملك بالفضل والكرم، وبحوله وقوته أطعته وبتوفيقه ورحمته عبدته وإياك أن تدنس قميص ايمانك

ولسود وجه قلبك بإتيان ما نهاك عنه مولاك ومهما وقع منك ذنب على سبيل الندور فعليك أن تبادر بالتوبة وتحسن الأوبة وتكثر الندم والاستغفار ولا تزال خائفا وجلا ، فإن المؤمن لا يزال في غاية من الخوف والوجل وإن أخلص الطاعة وأحسن المعاملة ، وأنت تعلم ما كانت عليه الأنبياء مع عصمتهم والأولياء مع حفظهم من الخوف والاشفاق مع صلاح أعمالهم ، وقلة ذنوبهم أو عدمها فأنت بذلك أولى وأحرى ، فلقد كانوا أعرف منك بسعة رحمة الله وأحسن منك ظنا بالله وأصدق منك طمعا في عفوه وأعظم منك رجاء في كرمه وفضله فاقتد بآثارهم تنج وتسلم واتبع سبيلهم تفز وتغنم واعتصم بالله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم .

[فصل] فلما كانت هذه الدار قد أسست على المحن والآفات وعجنت بالمنغصات والمكدرات وحشيت بالمشغلات والملهيات كثرت لذلك الصوارف عن الطاعات وتوفرت الدواعي الى المخالفات ، ثم أنها وإن كثرت تلك الصوارف وتوفرت تلك الدواعي فتكاد تنحصر في أربعة أشياء : أحدها : الجهل . الثاني : ضعف الايمان . الثالث : طول الأمل . الرابع : أكل الحرام والشبهات ، ونحن ان شاء الله نشير الى كل واحد من هذه الأربعة بكلمات وجيزة تنبه على ذمها وصدور التثبط عنها وسبيل الخلاص منها وبالله التوفيق .

[فصل] أما الجهل فهو أصل كل شر ومنشأ كل ضرر ، وهو وأهله داخلون في عموم قوله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما عليها الا ذكر الله وعالم ومتعلم » ويروى « أن الله لما خلق الجهل قال : له أقبل فأدبر فقال أدبر فأقبل فقال له وعزتي ما خلقت خلقا أبغض إلي منك ولأجعلنك في شرار خلقي » وقال علي كرم الله وجهه : لا عدو أعدى من الجهل ، والمرء عدو ما جهل ، وذم الجهل معلوم بالنقل والعقل لا يكاد يخفى على أحد والجاهل واقع في ترك الطاعات وفعل المعاصي شاء أم أبى فإنه لا يدري أي شيء الطاعة التي أمره الله بفعلها ، ولا أي شيء المعصية التي نهاه الله عن ارتكابها ؟ ولا يخرج من ظلمات الجهل إلا بنور العلم ، ولله در الشيخ علي بن أبي بكر حيث يقول :

الجهل نار لدين المرء يحرقه ... والعلم ماء لتلك النار يطفيها

فعليك أن تتعلم ما أوجب الله عليك علمه ، وليس بواجب عليك أن تتسع في العلم : بل عليك أن تتعلم ما لا يصلح إيمانك بدونه من علوم الايمان ، وعليك أن تتعلم كيف تؤدي ما افترض الله عليك من طاعته ، وكيف تجتنب ما نهاك عنه من معصيته ؟ وتجوّز في الفوريات ، وموسعا في الموسعات ، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول : من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه ، ومن طلب العلم للناس فحوائج الناس كثيرة .

[فصل] وأما ضعف الايمان فهو بلية عظيمة ، وخلة ذميمة تنشأ عنها أمور مذمومة مثل ترك العمل بالعلم ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأما في المغفرة بلا سعي لها والاهتمام بالرزق وخوف الخلق الى غير ذلك من الاخلاق المذمومة ، وعلى قدر إيمان العبد يكون امتثاله للأمر واجتنابه للنهي وأول دليل على ضعف إيمانه تركه للموافقات وارتكابه للمخالفات ، فعلى كل مؤمن أن يسعى في تقوية إيمانه . والأمور التي يقوى بها الايمان ويزيد ثلاثة : أحدها أن يصغي بسمعه إلى الايات والأخبار التي فيها ذكر الوعد والوعيد وأمور الآخرة والى قصص الأنبياء وما أيدوا به من المعجزات وما حل بمعانديهم من المثلات ، والى ما كان عليه السلف الصالح من الزهادة في الدنيا والرغبة في الآخرة إلى غير ذلك من الأدلة السمعيات .

الثاني أن ينظر بعين الاستبصار والاستدلال إلى ملكوت السموات والأرض وما بينهما من عجائب الآيات وبدائع المصنوعات . الثالث أن يواظب على العمل بالصالحات ويحترز من الوقوع في المعاصي والسيئات وأن الايمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وكل هذه المذكورات تزيد بها الايمان ويقوى بها

الإيقان والله المستعان .

[فصل] وأما طول الأمل فهو مذموم جدا ، بل هو الذى يدعو إلى خراب الآخرة وعمار الدنيا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينجو أول هذه الأمة بالزهد فى الدنيا وقصر الأمل ، ويهلك آخرها بالحرص وطول الأمل » وقال عليه الصلاة والسلام « من الشقاء أربع : جمود العين وقسوة القلب والحرص وطول الأمل » ومن دعائه عليه الصلاة والسلام « أعوذ بك من كل أمل يلهينى » وقال على كرم الله وجهه : أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل : أما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . ومن المأثور : من أطال أمله نسى عمله ، فطول الأمل عبارة عن استشعار طول البقاء فى الدنيا وهو دال من صاحبه على فرط الحماقة ونهاية الغباوة فانه قد ضيع الحزم وتمسك بالوهم ، ولو قيل له ممساة هل تثق بالبقاء الى الصباح ، أو مصباحا هل تثق بالبقاء الى المساء ؟ لقال لا ، ثم هو يعمل لدنياه عمل من لا يموت حتى لو أنه أخبر بأنه يخلد فى الدنيا لم يجد موضعا للزيادة على ما هو عليه من الحرص والرغبة فى الدنيا ، فمن أعظم حماقة ممن هذه صفته ؟ . ثم ان طول الأمل أصل جملة من سيئات الأخلاق والأعمال التى تثبط عن الطاعة وتدعو الى الوقوع فى المعصية مثل الحرص والبخل وخوف الفقر ، ومن أعظمها قبحا الاستبشاش بالدنيا والأخذ من عمارتها والسعى لجمع حطامها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « بعثت لخراب الدنيا فمن عمرها فليس منى » ومن طول الأمل يكون التسويف ، وهو العقم الذى لا يلد خيرا قط ، يقال ان أكثر صياح أهل النار من سوف فلا يزال المسوف يتثاقل عن الطاعات ويؤخر التوبة عن السيئات حتى ينزل به الموت ـ فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ـ فيقال له ـ ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ـ فيخرج من الدنيا بحسرة لا آخر لها وندامة لا انتهاء لها ، فقصر يا أخى أملك وليكن أجلك نصب عينيك وأملك وراء ظهرك ، واستعن على ذلك بالاكثار من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وتفكر فيما اندرج امامك من المعارف والقرابات واستشعر قرب الموت ، فانه أقرب غائب ينتظر وكن مستعدا له متخوفا هجومه فى جميع الحالات ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « والذى نفسى بيده ما رفعت طرفى وظننت أنى أخفضه حتى أقبض ، ولا أكلت لقمة فظننت انى أسيغها حتى أغص بها من الموت » الحديث ، وربما ضرب بيده على الحائط للتيمم فيقال له ان الماء منك قريب فيقول : لا أدرى لعلى لا أبلغه ، وكان الصديق رضى الله عنه ينشد :

كل امرئ مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

قال حجة الاسلام رحمه الله . اعلم أن الموت لا يهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص ولا بد من هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا .

[فصل] وأما تناول الحرام والشبهة فهو لا محالة يصرف عن الطاعة ويدعو الى المعصية ، وقد روى مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أكل الحلال أطاعت جوارحه شاء أم أبى ، ومن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى » وفى الخبر أو الأثر « كل ما شئت فمثله تعمل » وقال بعض العارفين : ما قطع الخلق عن الحق وأخرجهم من دائرة الولاية الا عدم تفتيشهم عن هذه اللقمة ، وآكل الحرام والشبهة وان أطاع فطاعته غير مقبولة لان الله انما يتقبل من المتقين ، والله طيب لا يقبل الا طيبا ، فأمسك يا أخى عن تناول الحرام وجوبا ، وعن تناول الشبهات ورعا ، وعليك بطلب الحلال ، فان طلبه فريضة بعد الفريضة فاذا ظفرت به فكل منه قصدا والبس منه قصدا ولا تسرف فان الحلال لا يحتمل السرف ، إياك والشبع فانه من الحلال مبدأ كل شر ، فكيف من الحرام ؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من

بطنه حسبُ ابنِ آدمَ لُقيماتٌ يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فثلثٌ لطعامه ، وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه والسلام » .

[فصل] قال الله تعالى - وما خلقتُ الانسَ والجنَّ إلا ليعبدون - وقال تعالى - يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فإياي فاعبدون - فعليك أيها المؤمن وفقك الله بالتفرغ لعبادة ربك بقطع ما يقطع عنها من القواطع ، وصرف ما يصرف عنها من الصوارف والموانع . واعلم أن العبادة لا تصح بدون العلم ، والعلم والعبادة لا ينفعان إلا مع الاخلاص ، فعليك به فانه القطب الذي عليه المدار ، والأصل الذي عليه المعول ، وهو كما قال أبو القاسم القشيري رحمه الله : الاخلاص افراد الحق في الطاعة بالقصد ، وهو أن تقصد بطاعتك التقرب الى الله دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله ، قال : ويصح أن يقال : الاخلاص تصفية العمل عن ملاحظة الخلق انتهى ، وهو القصد في هذا الباب .

[فصل] وإياك والرياء فانه يحبط العمل ويبطل الثواب ، ويوجب المقت والعقاب ، وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « أول خلق الله تسعر به النار ثلاثة : رجل قرأ القرآن ليقال انه قارئ ، ورجل استشهد وما قاتل إلا ليقال انه جريء ، ورجل له مال تصدق منه صدقة ليقال انه جواد » الحديث بمعناه . والرياء عبارة عن طلب المنزلة عند الناس بعمل يتقرب بمثله الى الله كالصلاة والصيام ، فان أحسست من نفسك بالرياء فلا تطلبن الخلاص منه بترك العمل فتكون قد أرضيت الشيطان ، بل عليك أن تنظر فكل عمل لا تستطيع أن تعمله الا حيث يراك الناس كالحج ، والجهاد ، وطلب العلم ، وصلاة الجماعة وما يجري مجرى ذلك فعليك أن تفعله ظاهرا كما أمرك الله ، وجاهد نفسك واستعن بالله . وأما ما لا يكون من الأعمال بهذه المثابة كالصيام والقيام والصدقة والتلاوة فعليك في مثل هذه الأعمال بالمبالغة في كتمانها فان فعلها في السر أفضل مطلقا إلا لمن يأمن الرياء وأمل الاقتداء ، وكان من أهله .

[فصل] واحذر العجب فانه من المحبطات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقال صلوات الله عليه وسلامه « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » والعجب عبارة عن نظر الانسان الى نفسه بعين التعظيم والى ما يصدر منها بعين الاستحسان ، وعنه ينشأ الادلال بالعلم والتعاظم على الناس والرضى عن النفس ، وهو كما قال ابن عطاء الله رحمه الله : أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس انتهى ، ومن رضي عن نفسه عمي عن عيوبها ، وأنى يفلح من يجهل عيوب نفسه ؟ :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

[فصل] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فاذا كان حبها رأس كل خطيئة وأصل كل بلية وأساس كل رزية ومعدن كل فتنة ومنبع كل محنة ، وهو أمر قد تعم في هذا الزمان ضرره وطار شرره ، وعظم خطره وأطبق عليه الخاص والعام ، وتظاهر الناس به بلا احتشام ، كأنه لا عار فيه ولا ملام ، وقد تمكن من قلوبهم كل التمكن فأقر لهم الحرص البالغ على عمارة الدنيا وجمع الحطام ، فغدوا وراحوا بشبكاتهم لاصطياد الشبهات والحرام ، كأن الله قد فرض عليهم عمارة الدنيا كما فرض الصلاة والصيام ، ولذلك درست معالم الدين ، وطمست أنوار اليقين ، وخرست ألسنة المذكرين ، وعفت سبل الهدى ، واقتحمت سبل الردى ، وهذه والله هي الفتنة العمياء الصماء المدلهمة السوداء التي لا يجاب فيها من دعا ، ولا يسمع فيها من نادى ، حق ما أخبر به سيد الأنبياء اذ يقول « لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال ولكل أمة عجل وعجل أمتي الدينار والدرهم » معناه والله أعلم أن لكل أمة شيئا يشتغلون به عن عبادة الله

تعالى كل الاشتغال كما اشتغلت بنو اسرائيل بعبادة العجل عن عبادة الله تعالى ، فمن الحسن أن نختم هذه النبذة بشيء مما ورد في ذم الدنيا وذم مؤثرها ، وينبغي أن نصدر ذلك بقاعدة يعول عليها ويرجع اليها . فنقول وبالله التوفيق :

الدنيا على ثلاث طبقات : فدنيا فيها الثواب ، وأخرى فيها الحساب ، وثالثة فيها العذاب ، فأما التي فيها الثواب فهي التي تصل بواسطتها الى الخير وتنجو بواسطتها عن قلع الشر ، وهي مطية المؤمن ومزرعة الآخرة ، وهي الكفاف من الحلال ، وأما التي فيها الحساب فهي التي لا تشتغل بسببها عن أداء مأمور ولا ترتكب في طلبها أمرا محظورا ، وهذه الدنيا فيها الحساب الطويل وأربابها هم الأغنياء الذين يسبقهم الفقراء الى الجنة بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، وأما التي فيها العذاب فهي التي تقطع عن أداء المأمورات وتوقع في ارتكاب المحظورات ، وهي زاد صاحبها الى النار ومدرجته الى دار البوار ، واليه الإشارة بما روى « أن الله يأمر بالدنيا الى النار فتقول يارب أشياعي وأتباعي ؟ فيقول سبحانه وتعالى ألحقوا بها أشياعها وأتباعها فيلحقون بها » .

[واعلم] أن طلاب الدنيا على أنواع : فمنهم من يطلبها على نية صلة الأقربين ومواساة المقلين ، وهذا يعد من الأسخياء وله ثواب ان وافق عمله نيته ولكنه لاحكمة عنده لأن الحكيم لا يطلب أمرا لا يدرى ماذا يكون الحال عند حصوله وليعتبر من يطلبها على هذه النية بقصة ثعلبة المشار إليه في قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن » الآيات ، وكم من طالب نيته نيل الشهوات والتمتع باللذات وهذا يعد في جملة البهائم ويدخل في حيز الأنعام ، والى نوعه الإشارة بقوله تعالى « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » وكم من طالب يطلب الدنيا ليفاخر بها ويكاثر بها ويباهى بها وهو معدود من الحمقاء المغرورين بل من الهالكين المتبورين ، وقد علم كل أناس مشربهم ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، فانصح يا أخى لنفسك ، واياك أن تغشها فتدعى أمرا ليس من نيتك فتكون قد جمعت بين الإفلاس والدعوى فتخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، اذا تقرر هذا فلنشرع في الخاتمة ونقول :

[خاتمة] تحتوى على آيات من كتاب الله وأخبار من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار من حكمة أولياء الله تدل على حقارة الدنيا وسرعة زوالها وعلى حماقة من اغتر بها وركن الى عاجلها وتحمل على الزهد في الدنيا من نظر فيها ، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال الله تعالى ، وقوله الحق وكلامه الصدق « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » وقال تعالى « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا » وقال تعالى « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » وقال تعالى « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » وقال تعالى « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » وقال تعالى « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وعالم ، ومتعلم فلو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء . الدنيا جيفة قذرة ، ان الله تعالى جعل ما يخرج من ابن

آدم مثلاً للدنيا . ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يضع أحدكم أصبعه في اليم فينظر بما يرجع . ليودن كل أحد يوم
القيامة أنه ما أعطي من الدنيا كان قوتاً . ان بين أيديكم عقبة كؤوداً لا يجوزها الا المخفون . وقال رجل هل
أنا من المخفين يا رسول الله ؟ فقال هل عندك قوت يومك ؟ قال نعم قال هل عندك قوت غد ؟ قال لا ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لو كان عندك قوت غد لم تكن من المخفين . وقال عليه الصلاة والسلام الدنيا حلوة
خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، واتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فوالله ما الفقر أخشى
عليكم ، انما أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم
كما أهلكتهم . ان مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح لكم من زينة الدنيا وزهرتها ، احذروا فانها أسحر من
هاروت وماروت . الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . ان الله يذود الدنيا عن عبده المؤمن كما يذود الراعي
الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة . ذنب لا يغفر حب الدنيا . من أحب آخرته أضر بدنياه ومن أحب دنياه
أضر بآخرته فآثروا ما يبقى على ما يفنى . مرة الدنيا حلوة الآخرة وحلوة الدنيا مرة الآخرة . الأكثرون هم
الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ليجاءن بأقوام يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة فتجعل
هباء منثورا ، ويؤمر بهم إلى النار كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنية من الليل ، فاذا لاح لهم شيء
من الدنيا وثبوا عليه . وقال صلوات الله عليه وسلامه : مالي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيا كراكب سار
في يوم صائف فقال تحت شجرة ساعة ثم راح . من أصبح آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه
فكأنما حيزت اليه الدنيا بحذافيرها . بعثت لخراب الدنيا من عمرها فليس مني . من كانت نيته الآخرة جعل
الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه
وشتت عليه أمره ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له . كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد
نفسك في أهل القبور . ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . وقال عليه الصلاة
والسلام : الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يحزن من لا علم له وعليها
يحسد من لا فقه له وبها يفرح من لا يقين له ، ما يسكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث : شغل
لا ينفك عناه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه . وان الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان فطالب
الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستوفي رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذه الموت بعنقه . ألا وان
السعيد من آثر باقية يدوم نعيمها على فانية لا ينفد عذابها ، وقدم لما يقدم عليه مما هو الآن في يديه قبل
أن يخلفه لمن يسعد بانفاقه وقد شقي هو بجمعه واحتكاره . تعس عبد الدنيا وانتكس فاذا شيك فلا انتقش .
وقال عليه الصلاة والسلام : الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن والبطالة
تقسي القلب . ان النور اذا دخل القلب انشرح له وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال عليه الصلاة
والسلام : التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله . وأوحى الله الى موسى
ياموسى : اذا أحببت عبدي زويت عنه الدنيا وهكذا أفعل بأحبائي ، ياموسى اذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب
عجلت عقوبته ، واذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . وأوحى الله إلى داود : ياداود من آثر
هوى دنياه على لذة آخرته فقد استمسك بالعروة التي لا وثاق لها ، ومن آثر هوى آخرته على لذة دنياه فقد
استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . وأوحى الله إلى عيسى : ياعيسى قل لبني اسرائيل يحفظوا عني حرفين :
قل لهم ليرضوا بدني الدنيا لسلامة دينهم كما رضي أهل الدنيا بدني الدين لسلامة دنياهم . وفي بعض كتب
الله المنزلة : أهون ما أنا صانع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه . ويروى عن الله
تعالى : انه قال للدنيا يادنيا مري لأوليائي ولا تحلي لهم فتفتنيهم . وقال علي كرم الله وجهه : مثل الدنيا والآخرة
مثل المشرق والمغرب على قدر ما تقرب من أحدهما تبعد عن الآخر ، ومثل الضرتين اذا أرضيت إحداهما

استخطت الأخرى ، ومثل اثنين أحدهما فارغ والآخر ممتلئ بقدر ما نقصت في الفارغ ينقص الملآن . وقال رضي الله عنه : وجدت الدنيا ستة أشياء : مطعوم وأطيبه العسل وهو مذق ذباب ، ومشروب وأحسنه الماء وهو الذي يستوي فيه البر والفاجر ، ومشموم وأذكاه المسك ، وهو دم فارة ، وملبوس وأليته الحرير وهو نسج دودة ، ومركوب وأنفسه الفرس وهي التي يقتل الرجل عليها ، ومنكوح وهو مبال في مبال ، وتحسك أن المرأة تتزين بما حسن ما عندها وتقصد منها أخس ما فيها . وقال رضي الله عنه : طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا وترابها فراشا وماءها طيبا والدعاء والقرآن شعارا ودثارا فرفضوا الدنيا على منهاج عيسى عليه الصلاة والسلام ، وفي المعنى أنشدوا :

إن لله رجالا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : الدنيا نذلة وهي بكل نذل أشبه ، وأنذل منها من يأخذها من غير وجهها ، وللمتنبي في المعنى :

وأشبه الشيء منجذب اليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام

ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام

وقال الحسن البصري رحمه الله : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فيها فرحا ، رحم الله امرأ لبس خلقا وأكل كسرة ولزق بالأرض وبكى على الخطيئة ودأب في العبادة . وقال رحمه الله : اذا دخل القلب حب الدنيا ذهب منه خوف الآخرة ، وإياكم وما يشغل من الدنيا فانه لم يفتح عبد على نفسه بابا من الدنيا الا سد عليه عدة أبواب من عمل الآخرة . وقال رحمه الله : مسكين ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع بمصيبته في دنياه ، على الأسقام والأمراض أسست هذه الدنيا ، هبك تصح من الأسقام وتبرأ من الأمراض هل تقدر أن تنجو من الموت ؟ ، ولله در القائل :

هب الدنيا تواتيكا ... أليس الموت يأتيكا

ألا يا طالب الدنيا ... دع الدنيا لشانيكا

فما تصنع بالدنيا ... وظل الميل يكفيكا

وقال محمد الباقر رضي الله عنه : ما الدنيا وما عسى أن تكون ، هل هو الا مركب ركبته أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها ؟ وقال وهب بن منبه رحمه الله : للجنة ثمانية أبواب ، فاذا حصل الناس عليها قال لهم الخزنة : وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين للجنة ، وقال محمد بن سيرين : اختصم رجلان في الأرض فأوحى الله إلى الأرض : أن كلمهما ، فقالت لهما يا مسكينان قد ملكني قبلكما ألف أعور فضلا عن الأصحاء . وقال أبو حازم المدني رحمه الله : ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد لصق به شيء يسوءك ، الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، وموطن شقاء لا موطن رخاء ، وقالت له امرأته : إن الشتاء قد يهجم ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب ، فقال من هذا كله بد بد ، ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله ، ثم الجنة والنار . وقال رحمه الله : ما تضرب بيدك إلى شيء من الدنيا إلا وتجد فاجرا قد سبقك اليه ، وقال رحمه الله : نعمة الله علي فيما زوى عني من الدنيا أفضل من نعمته علي فيما صرف الي منها ، وقال ما مضى من الدنيا حلم ، وما بقي منها أماني ، وأنشد في المعنى :

كعبور طيف أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

ولأبي الطيب المتنبي :

وكم من يعشق الدنيا قديماً ... ولكن لا سبيل إلى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

وقال لقمان عليه السلام: من باع دنياه بآخرته ربحهما جميعاً، ومن باع آخرته بدنياه خسرهما جميعاً ووصيته لابنه: الدنيا بحر عميق قد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيه تقوى الله، وحشوها الإيمان وشراعها التوكل لعلك تنجو، وما أراك ناج. وقال مالك بن دينار رحمه الله: إذا سقم البدن لا ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا غلبه حب الدنيا لم تنفعه الموعظة، وقال لأصحابه إنما أدعو وأمنوا أنتم. اللهم لا تدخل بيت مالك من الدنيا لا قليل ولا كثير، وكان إذا خرج من منزله يشد بابه بحبل ويقول: لولا الكلاب تركته مفتوحاً، وكان يقول: لا يبلغ العبد منازل الصديقين حتى يدع امرأته كأنها أرملة ويأوى إلى الكلاب، ومر على رجل يغرس فسيلاً فغاب يسيراً، ثم مر وقد أثمر، فسأل عن غارسه؟ فقيل له مات، فأنشأ يقول:

مؤمل دنيا لتبقى له ... فات المؤمل قبل الأمل
يربي فسيلاً ويعنى به ... فعاش الفسيل ومات الرجل

ولأبي العتاهية:

كم عامر داراً ليسكن ظلها ... سكن القبور وداره لم يسكن

وفي بعض الآثار: لا تزال لا إله إلا الله تنفع قائلها ما لم يؤثر صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوها، قال الله: كذبتم لستم بها صادقين. وكان بعض السلف يقول: يا من يمسك السماء أن تقع على الارض إلا باذنه أمسك عني الدنيا، ودخل ابراهيم بن أدهم على المنصور، فقال: يا ابراهيم ما تقول؟ فأنشده:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وقال انسان لداود الطائي: أوصني، فقال له صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة، وفر من الناس فرارك من الأسد، ورآه رجل في المنام وهو يعدو فقال له: يا أبا سليمان ما لك؟ فقال: الآن أفلت من السجن فلما استيقظ قيل له: مات داود الطائي، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهادة في الدنيا، وقال رحمه الله: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى لكان ينبغي لنا أن نؤثر خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف والدنيا خزف يفنى والآخرة ذهب يبقى؟. وقال رحمه الله: لو أتيت بالدنيا وقيل لي خذها حلالاً بلا حساب لكنت أستقذرها كما يستقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لو كانت الدنيا تباع في السوق لما اشتريتها برغيف، ألا أرى فيها من الآفات، وقال رحمه الله:

ومن يحمد الدنيا فاني طعمتها ... وسيق الينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلماً لأهلها ... وان تجتذبها نازعتك كلابها

وقال كثير بن الحارث رحمه الله: من سأل ربه الدنيا فقد سأله طول الوقوف بين يديه، يعني للحساب وكان ينشد هذه الأبيات:

أقسم بالله لرضخ النوى ... وشرب ماء القلب المالحة
أحسن للمؤمن من حرصه ... من سؤال الأوجه الكالحة

فاستغن بالله تكن ذا غنًا مغتبطًا بالصفقة الرابحه
اليأس عز والتقى سودد ورغبة النفس لها فاضحه
من كانت الدنيا له برة فانها يومًا له ذابحه

وكان ينشد هذين البيتين لبعض السلف، رضوان الله عليهم :

مكرم الدنيا مهان مستذل في القيامه
والذي هانت عليه فله ثم كرامه

وقال ضرار بن ضمرة يصف عليا كرم الله وجهه : كان يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين قابضا على لحيته قائلا : يادنيا غري غيري : الي تعرضت ، ام الي تشوفت قد بتتك ثلاثا لارجعة فيها فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير . آه آه من قلة الزاد وبعد الطريق ووحشة السفر . وقال بعض السلف : مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ان أخذه من حله حوسب بنعيمه ، وان أخذه من غير حله عذب به ، وقال المأمون رحمه الله : ما أحسن أحد يصف الدنيا يعني : من الشعراء بمثل ماوصفها به الحسن بن هاني في قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : ليكن نظرك في الدنيا اعتبارا ، وزهدك فيها اختيارا ، وأخذك منها اضطرارا . وقال رحمه الله : تركت الدنيا لكثرة عنائها وقلة غنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها ، وقال أيضا : الدنيا حانوت ابليس من أخذ منه شيئا تبعه حتى يأخذه . الدنيا من أولها إلى آخرها لاتساوي غم ساعة ، فكيف بغم عمرك مع قلة نصيبك منها ؟ وقال بعض الصالحين :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قريب يلومها
اذا أدبرت كانت على المرء حسرة وان أقبلت كانت كثيرا همومها

ودعا الرشيد بشربة ماء فأتي بها ، وكان ابن السماك عنده فقال له : أرأيت لو حيل بينك وبين هذه الشربة ، أكنت تشتريها بملكك ؟ قال نعم ، فقال ابن السماك أف لدنيا لاتساوي شربة ماء . وقيل لبعض المتقدمين ممن طال عمره : صف لنا الدنيا ، فقال : بيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ، ورأيت سنيات بلاء ، وسنيات رخاء ومولود يولد وهالك يهلك ، فلولا من يلد ما بقي منهم أحد ، ولولا من يهلك ما وسعتهم الدنيا . وقال بعض الحكماء : الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، والآخرة عمار ، وأعمر منها قلب من يطلبها . وقيل لحكيم آخر : الدنيا لمن ؟ قال لمن تركها ، قيل : فالآخرة لمن ؟ قال لمن طلبها ، وقيل لبعض الزهاد : كيف رأيت الدنيا ؟ قال تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتقرب المنية وتبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهلها ؟ قال من ظفر بها تعب ، ومن فاته نصب ، ولله در من يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج اليه

قال الامام حجة الاسلام في الاحياء : أما بعد : فان الدنيا عدوة الله وعدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله : أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر اليها منذ خلقها ، وأما عداوتها لأوليائه فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وأما عداوتها

لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها خذلتهم أحوج ما كانوا اليها فاجتنوا منها حسرة تتقطع منها الأكباد، ثم حرمتهم من السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون فلا يغاثون، بل يقال لهم - اخسئوا فيها ولا تكلمون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون - انتهى. وعلى الجملة فالآيات والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى وأبعد من أن تستقصى، وفيما أشرنا اليه كفاية وعبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يتذكر - وما يتذكر إلا من ينيب - .

ولنختم هذه الخاتمة بذكر شىء من كلام رأس الزاهدين وحجة الله عليهم عيسى ابن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام. قال عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها، يا طالب الدنيا لتبر بها تركك لها أبر وأبر، لا يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يجتمع الماء والنار في إناء واحد، وقال عيسى عليه السلام: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك قادر، وقال عليه الصلاة والسلام «لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليها الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف الآفة» وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «إدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس وسراجي القمر ودابتي رجلاى وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض أبيت وليس لي شىء، وأصبح وليس لي شىء وما أجد على الأرض أغنى مني» وقال عليه الصلاة والسلام «عجبت لغافل ليس بمغفول عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه، ولبان قصرا والقبر مسكنه إن خشية الله وحب الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ويورثان الصبر على المشقة، وان أكل الشعير والنوم على المذابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس» وكان يقول: يامعشر الحواريين قد أكببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، وقالوا له مالك تمشي على الماء ونحن لا نستطيع المشي عليه؟ قال: كيف منزلة الدينار والدرهم؟ قالوا: حسنة رفيعة قال: لكنها عندي بمنزلة الحجر والمدر، وتوسد حجرا فأتاه ابليس فقال له: ياعيسى ركنت الى الدنيا فرمى اليه الحجر وقال: ماعندي منها غير هذا؛ واشتد عليه المطر والبرق والرعد يوما فرفعت له خيمة فقصدها فإذا فيها امرأة فتركها ورأى مغارة فأتاها فرأى بها سبعا، فقال اللهم جعلت لكل شىء مأوى ولم تجعل لي مأوى فأوحى الله إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك ألفا من الحور العين ولأطعمن أهل الجنة في عرسك آلافا من السنين، وقال عليه الصلاة والسلام «يا ابن آدم ان كنت تطلب من الدنيا ما يكفيك فالقليل منها يكفيك وان كنت تريد منها فوق ما يكفيك فجميع الدنيا بأسرها ما يكفيك، فلا تهلكوا أنفسكم بطلب الدنيا واغلبوا أنفسكم عليها بترك ما فيها، فعراة دخلتموها وعراة تخرجون منها فاسئلوا رزق يوم، واعلموا أن الله قد جعل الدنيا قليلا وبقي منها قليل قد شرب صفوه وبقي كدره، واعلموا أن الدنيا دار عقوبة وغرور فكونوا فيها كرجل يداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يرجو من الشفاء وعافية الداء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة»، وقال عليه الصلاة والسلام «عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل» وتمثلت له الدنيا في صورة امرأة عليها من كل زينة فقال لها: هل لك من زوج؟ قالت أزواج كثيرة، فقال فكلهم طلقك أم كلهم قتلت؟ قالت بل كل قتلت، قال هل حزنت على أحد منهم؟ قالت هم يحزنون علي ولا أحزن عليهم ويبكون علي ولا أبكي عليهم، قال عجبا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين»، «ومر على قوم يعبدون الله وفيهم رجل نائم فقال له ياهذا قم لتعبد ربك مع أصحابك فقال له قد عبدته بأفضل من عبادتهم زهدت في الدنيا فقال له نم هنيئا فقد فقت العابدين» أو كما قال، وقال عليه الصلاة والسلام «وقد سئل عن أولياء

الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، قال : الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها واهتموا بآجل الدنيا حين اهتم الناس بعاجلها ، وأماتوا منها ماخشوا أن يميتهم وتركوا منها ماعلموا أنه سيتركهم ، فما عرض لهم من نائلها عارض الارفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع الاوضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فما يجددونها ، وخربت بينهم فلا يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فلا يحيونها ، بل يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، ونظروا الى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات فما يرون أمانا دون مايرجون ، ولاخوفا دون مايحذرون .

آخر الخاتمة ، وبه تكمل رسالة المذاكرة مع الاخوان المحبين من أهل الخير والدين ، وما سميتها بهذا الاسم الا لكونى وضعتها على سبيل المذاكرة معهم ، المنى الله واياهم رشدنا ، ووقانا شر أنفسنا ، وكل ماأوردته فى هذه الرسالة من الأخبار والآثار نقلته من الكتب الصحيحة المعتمدة ، وقد تركت الفصل بين الاحاديث التى أوردتها فى صدر الخاتمة ، وصيرتها كأنها أربعة أحاديث أوخمسة : وهى نحو من عشرين وما فعلت ذلك الا لكونى رأيته أوجز وأخصر وأقرب الى حصول الأثر : والحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ومايتزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم الى يوم البعث والنشور وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من املاء هذه الرسالة ليلة الخميس ثالث وعشرين من شهر شعبان أحد شهور سنة ١١٦٨ من الهجرة النبوية ، والحمد لله رب العالمين

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بصر أفئدة المخلص من عباده ، فدأبوا على طاعته ابتغاء مرضاته ، ففازوا بعظيم قربه وجزيل ثوابه . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بهديه استنارت القلوب . بعد أن كانت مغمورة فى ظلمات الجهل ، فبه أشرقت عليها أنوار علام الغيوب . وعلى آله وصحبه الذين بحكمتهم تعالج البصائر ، وتستنير الضمائر .

[وبعد] فقد تم طبع الكتابين الجليلين اللذين هما كاسمهما : الاول (الدعوة التامة والتذكرة العامة) والثانى : (رسالة المذاكرة) كلاهما للأستاذ الكبير والقطب الشهير العارف بالله الحبيب السيد [عبد الله بن علوى الحداد] أثابه الله ، وجعل الفردوس متقلبه ومثواه .

فنقدمهما الى كل راغب فى سلوك الطريق المستقيم ، والفوز بالقرب من الحكيم العليم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين آمين.

القارئ : كامل جزولى أشمونى

فهرس

الدعوة التامة والتذكرة العامة

للعارف بالله : السيد عبد الله بن علوى الحداد رحمه الله

صحيفة